

الْقِيَامَاتُ

وَالْفَحْصُ الذَّاتِيُّ



وَجَعَدَ الْغَزِيرُ بْنُ جَعْدٍ الرَّحْمَنُ الشَّيْخَ

العبيكان
Obëkan

القِسْمَاتُ
وَالْفَحْصُ الذَّاتِي

٢ شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان: عبدالعزيز بن عبد الرحمن

القرآن والفحص الذاتي. / عبدالعزيز بن عبد الرحمن الثنيان. - الرياض، ١٤٤٣هـ

٣٦٠ ص؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٥-٤٥٢-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٤٣/١٠٢٣٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

نشر وتوزيع العبيكان
Obekan

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٩٦٦ ١١ ٤٨٠٨٦٥٤، فاكس: ٩٦٦ ١١ ٤٨٠٨٠٩٥

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

تواصل معنا



CONTACT US





المحتويات

١١	المقدمة
١٥	مدخل
١٩	أعظمُ المقامات
٢٨	استشعار الأمن
٣٦	الأسوةُ الحسنة
٤٣	اقرأ القصة
٥٣	أَوْ تَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ؟
٦١	تَكْفِيكَ أَوْ زَارُكَ!
٦٩	الخبر اليقين
٧٦	خشوع القلب
٨٥	خِصَالٌ احذرْها

١٠٣	ذوو القربى
١١٢	الرزق وقصة الفتاة
١٢٢	زَيْنُتُكُ .. وَفَصْلُ الْخَطَابِ!
١٣٣	الشَّهَوَات
١٤٥	عَدُوَّان، احذرهما
١٥٤	العلاقة الزوجية
١٧٢	قُدُواتنا والابتلاءات
١٨٣	القول والعمل
١٩٦	كَلِّمَا ...
٢٠٣	كيف أنت والدنيا؟
٢١٥	كيف تنال الأفضلية!
٢٢٥	الْمُتَّقُونَ وهل أنت منهم؟
٢٣٦	الْمِرْآةُ الْعَاكِسَةُ
٢٤١	مُسَاءَلَةُ النَفْسِ!
٢٤٨	مَسْئُولِيَّتُنَا تُجَاهِ الدَّعْوَةِ
٢٥٩	مَسْئُولِيَّتُنَا نَحْوَ التَّذْكِيرِ
٢٧٣	مَضْمَارُ التَّوَرُّعِ
٢٨٥	مفتاح السعادة

٢٨٩	 مقياس محبة الله
٢٩٥	 مَهْرُ الْجَنَّةِ
٣١١	 ميزان النفقة
٣١٨	 نحن والإحسان..
٣٢٥	 هَلَّا تَعَرَّفْتَ عَلَى دَرَجَةِ إِيمَانِكَ!
٣٣٤	 الودُّ
٣٤٤	 الوقاية من الشقاوة
٣٥١	 الخاتمة
٣٥٥	 قائمة المصادر والمراجع



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،
أما بعد:

فيُوصي الأطباءُ بفحصِ الأجسامِ كلَّ حين، وينصحُ
بعضُهُم أن يكونَ الفحصُ دوريًّا في السنة مرتين
أو ثلاثًا، والهدفُ من ذاك الفحص هو التأكدُ من
سلامةِ الأجسامِ من الأمراض، وتداركِ المُصابِ قبل
استفحالِ المرض، فمن الأمراض -نسألُ الله السلامة-
ما يفتِكُ بالجسمِ دونَ شعورِ صاحبه به!

ولذا يحرصُ كثيرٌ من الناسِ على هذا الإجراءِ الطبِّي
بشكلٍ دوري، ويؤكدون عليه باستمرار، ويستجيبون

لنصيحة الأطباء بصورة كبيرة، وما سخرُوا ولا امتعضُوا،
من تلك الوصية الطبية!

وما ذا لو قال ناصح: هَلَّا عَرَضْتَ نَفْسَكَ لِلْفَحْصِ
القرآني، لتري أين أنت؟ فهل تُبادِرُ أم تُسَوِّفُ أم تسخر؟
لقد بدت لي فكرة هذا الكتاب: (القرآن والفحص
الذاتي)، وأنا أرى ممارسات الكثير من المسلمين خلاف
توصيات القرآن، فجاء هذا الكتاب تنبيهًا وإيقاظًا. ولئن
اعتراه بعض النقص، فذاك قصورٌ مني؛ فأنا بشر. وقد
راجع العلماء قبلي ما كتبوا، فعدّلوا، وبدّلوا. عن عبد الله
ابن الإمام أحمد بن حنبل، قال: قابلتُ بكتابٍ لأبي ثلاث
عشرة مرّة، فلما كان في الرابعة عشرة خرّج فيه خطأ،
فوضعه من يده، ثم قال: قد أنكرتُ أن يصحَّ غيرُ كتاب
الله عزَّ وجلَّ.

وقال المُرْزِي: «قرأتُ كتاب الرسالة على الشافعي
ثمانين مرّة، فما من مرّةٍ إلّا وكان يَقِفُ على خطأ،

فقال الشافعي: هِيَ أَبِي اللَّهِ أَنْ يَكُونَ كِتَابًا صَحِيحًا
غَيْرَ كِتَابِهِ»^(١).

أَسْأَلُ اللَّهَ الْمَثُوبَةَ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ.

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان

الرياض / البريد الإلكتروني: 1@ikcedu.net



(١) نماذج من رسائل الأئمة السلف وأدبهم العلمي: عبدالفتاح أبو غدة (ص ٥٩).

مدخل

وصايا القرآن الكريم أهمُّ من وصايا الأطباء، فهو كلامُ الله خالقِ الأطباء، وواضعِ الداء والدواء، والقادرِ على كُلِّ شيء.

وصايا القرآن، ونصائحه أعمُّ وأشمل، فهل نفحصُ أنفسنا عن طريق القرآن الكريم، ونستعرضُ نتائج الفحص الربّاني، ونجلو أنفسنا بتعرُّضنا للقرآن؛ لنرى مقدار قربنا منه، ومقدار بعدنا عنه؟!

إنها أوامرٌ وتوجيهاتٌ ربّانية، اقرأها وسأئلُ نفسك: كيف أنت مع هذا الفحص القرآني؟

اقرأها الآن قبلَ أن تقرأها في يوم حتميٍّ لا محالة، ستُساءلُ فيه عن هذا الفحص القرآني!

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٣) أقرأ كُتُبَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿[الإسراء: ١٣، ١٤].
 إي والله قسمي، هو يومٌ قادمٌ ثابتٌ لا محالة، سيؤتَى كُلُّ فردٍ فيه كتابهُ بيمينه أو شماله، جعلنا الله وكتبنا من أهل اليمين!

إن في القرآن وصفاتٍ شاملةً، وعنايةً بالجسم والعقل، بالجسد والروح، بالدنيا والآخرة، بالقيم والمُثل، بصلاح الفرد، وصلاح المجتمع!

فحتى وصية الأطباء بفحص جسمك من الأمراض، نبّه إليها القرآن؛ إذ أمركَ القرآنُ بفحص جسمك؛ فلا تتهور، وتُعَرِّضُ ذَاتَكَ للتهلكة، وجسدك للتلف، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. فلا تترك نفسك وقد توفرت المختبرات والعلم الطبي، إن أهملتها فقد ألقيتها في التهلكة، والقرآن ينهى عن ذلك، ولا تتهور وتزجُ بنفسك في أمور تعود عليك بالهَلَكَةِ والأذى، فنفسُكَ أمانةٌ لديك!

قال الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره لهذه الآية: «لا يجوز للإنسان أن يُعرض نفسه للأخطار، مثل أن يُلقى نفسه في نار، أو في ماء يُغرقه، أو ينأى تحت جدارٍ مائلٍ للسقوط، أو ما أشبه ذلك، فإن هذا حرام، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]؛ حيث يدخل في هذه الآية ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كلُّ ما يؤدي إلى ضرر للبدن، وإن لم يصل إلى درجة القتل، الدليل: أن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سرية وأجنب، وإذا الجو بارد فتيمم وصلّى بأصحابه، فلما رجع إلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال له: «أَصَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟»^(١).

قال: يا رسول الله، ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيممت، فضحك النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأقره»^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٩/٣٤٦-٣٤٧ رقم ١٧٨١٢)، وأبو داود (١/١٤٥ رقم ٢٣٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه (١/٣٥٥).

(٢) تفسير ابن عثيمين، سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

إذن، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ يشمل الإلقاء باليد إلى التَّهْلُكَةِ الحسّية والمعنوية. إنّ القرآن شاملٌ كاملٌ، فلنقرأه ونتدبّره، ونعمل بتوجيهاته!



أعظم المقامات

أهمُّ فحصٍ يجبُ أن تقومَ به، ويسبقُ جميعَ فحوصاتِكَ الطبيَّة والعلمية، وكلُّ ما يخطر على بالك من فحص، هو كيفَ أنتَ والتوحيد؟ إفرادُ الله بالعبادة.

إن في القرآن الفحص القطعي! اقرأ القرآن تجدِ الوصفات الشافية الكافية الحامية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

إيقاظٌ وتبئيهٌ من الله، ووضوحٌ وجللاء، احذر أن تشركَ مع الله أحداً في العبادة، فهذه الآية الكريمة قطعتِ الخبر، وأخبرتنا الخبرَ اليقين، أنه - سبحانه - لا يغفرُ لأحدٍ أن يشركَ به؛ فذاك إثمٌ عظيمٌ، وزللٌ

جسيمٌ. وَيُكَرِّرُ سُبْحَانَهُ تَحْذِيرُهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ فِي السُّورَةِ ذَاتِهَا، بِأَنَّهُ لَا مَغْفِرَةَ وَلَا تَكْفِيرَ مَعَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ؛ فَهُوَ الضَّلَالُ وَالسَّفَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿[النساء: ١١٦].

تنبّه أخي في الله!

تنبهي أُخَيَّتِي في الله!

كُرِّرُوا فَحَصَ أَنْفُسِكُمْ، لَا تَتَسَاهَلُوا فِي ذَلِكَ، سَأَلُوا أَنْفُسَكُمْ دَوْمًا كَيْفَ أَنْتُمْ وَالتَّوْحِيدُ؟ فَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ إِمَامُ الْمُوحِدِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ يُحَذِّرُهُ اللَّهُ مِنَ الشِّرْكِ، وَهُوَ تَحْذِيرٌ لَنَا جَمِيعًا، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وَيؤكد سُبْحَانَهُ أَيْضًا تَحْذِيرَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا حَذَّرَ جَلَّ جَلَالُهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مِنَ الشِّرْكِ، فَكَيْفَ بَنَّا نَحْنُ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْزِيَ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ يُنَبِّئُ الرُّسُلَ وَيُخَوِّفُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ، فَنَحْنُ الْأُولَى بِالتَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ، وَالفحص المستمر!

لذا ينبغي للمؤمن أن يخافَ من الشرك، ويحذرَ أسبابه وأنواعه، ويسألَ أهلَ الذكرَ لكيلا يقع فيه، يقول تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

لقد أكملَ اللهُ الدينَ وحفظه ورضيه، فالحذرَ الحذرَ من الانحراف والتأويل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

كَرَّرَ فحَصَ نفسك، واعرضها على القرآن تسلمَ من الشرك، فلا ترجو ولا تتوسل ولا تسأل إلا الله، كُنْ مع الله وحده ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

احذرَ أن تُشركَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أيًّا من البشر في دعائك، أخلص دعاءك لله، وتوجَّه إليه مُباشرة، لا تشرك معه أحدًا في طلبك ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

إن الله قريب من سائليه، لا تحسبه بعيدًا فتتشفع بآخرين، توجَّه إليه وحده وخُصّه -سبحانه- بسؤالك

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

يقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس: «يا غلامُ إِنِّي أَعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

جاء في الدُرَرِ السَّنِيَّةِ ما نصُّه: «هذا الحديثُ أصلٌ عظيمٌ في مُراقبةِ اللهِ، ومُراعاةِ حقوقِهِ، وتفويضِ الأمورِ إليه، والتَّوَكُّلِ عليه، وشُهودِ تَوْحِيدِهِ وتَفَرُّدِهِ، وعَجْزِ الخلائقِ كُلِّهِم وإفْتِقَارِهِمْ إليه وحده، وفيه أبلغُ ردٌّ على مَنْ اعتقدَ النِّفْعَ والضَّرَّ في غيرِ اللهِ مِنَ الأولياءِ

(١) رواه عبد الله بن عباس، الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي (٢٥١٦)، أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، واللفظ له، وأحمد (٢٦٦٩).

وَالصَّالِحِينَ وَأَهْلَ الْقُبُورِ، أَوْ سَأَلَهُمْ وَاسْتَعَانَ بِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التَّوْحِيدُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَلُبُّ الْإِيمَانِ»^(٢).

هذا، وَقِفْ مُتَأَمِّلاً مُتَدَبِّراً نَصَّ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ؛
إِنهَا شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
[آل عمران: ١٨].

وقال ابن القيم: «تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: أَجَلَ شَهَادَةٍ، وَأَعْظَمَهَا، وَأَعْدَلَهَا، وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ»^(٣).

وجاء في تفسير ابن كثير، «مَا رُوي عَنْ غَالِبِ الْقَطَّانِ قَالاً: أَتَيْتُ الْكُوفَةَ فِي تِجَارَةٍ، فَنَزَلْتُ قَرِيباً مِنَ الْأَعْمَشِ،

(١) موسوعة الدرر السنية، الرابط: <https://www.dorar.net/hadith/sharh/136880>

(٢) مجموع الفتاوى: ١/٣٦٨.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٣/٣٥٤.

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةٌ أَرَدْتُ أَنْ أُنْحَدِرَ قَامَ فَتَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ،
فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ
قَابِئًا بِالْقَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
الْإِسْلَامُ ﴿ثُمَّ قَالَ الْأَعْمَشُ: وَأَنَا أَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ بِهِ،
وَأَسْتَوْدِعُ اللَّهَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ، وَهِيَ لِي عِنْدَ اللَّهِ وَدِيعَةٌ:
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ قَالَهَا مِرَارًا. قُلْتُ: لَقَدْ سَمِعَ
فِيهَا شَيْئًا، فَعَدَوْتُ إِلَيْهِ فَوَدَّعْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ،
إِنِّي سَمِعْتُكَ تَرُدُّ هَذِهِ الْآيَةَ. قَالَ: أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا فِيهَا؟
قُلْتُ: أَنَا عِنْدَكَ مُنْذُ شَهْرٍ لَمْ تُحَدِّثْنِي. قَالَ: وَاللَّهِ
لَا أَحَدِثُكَ بِهَا إِلَى سَنَةٍ. فَأَقَمْتُ سَنَةً فَكُنْتُ عَلَى بَابِهِ،
فَلَمَّا مَضَتْ السَّنَةُ قُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، قَدْ مَضَتْ السَّنَةُ.
قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي عَهْدٌ إِلَيَّ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَى بِالْعَهْدِ،
أَدْخُلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ»^(١).

(١) تفسير ابن كثير، ٤٠١/١.

وقال الشيخ ابن سعدي في تفسيره: «هذا تقريرٌ من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحدٌ بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمةٍ إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلُّهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهانٌ قاطعٌ على وجوب التوحيد وبطلان الشرك. وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدُها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلائهم هم المرجعُ في جميع الأمور الدينية، خصوصًا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلُّهم من أولهم إلى آخرهم قد اتَّفَقوا على ذلك ودعوا إليه، وبيَّنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجبَ على الخلق التزام

هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد؛ لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم^(١).

هذا وبعد، فليعظم أمر العقيدة، وإفراد الله وحده بالعبادة؛ تكررت آيات التحذير والتخويف ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونٌ﴾ [النحل: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

إنه القرآن، فاسترشد به، واحذر أن تشرك مع الله أحداً في عبادتك وفي توسلِكَ ورجائك.

إن مقام التوحيد أمره جليل، وخطره جسيم، فالحذر منه واجب، والخوف منه أوجب الواجبات.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٢٤، ١٢٥.

عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لِلشِّرْكِ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصِّفَا». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَلِ الشِّرْكَ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِلشِّرْكِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصِّفَا، إِلَّا أَذْلَكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(١).



(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٤/٤٠٣.

استشعار الأمن

ما من شكٍّ في أن كلَّ فردٍ ينشدُ الأمن والأمان
لنفسه وأُسْرته، وأهمَّ مجالات الأمن؛ الأمن الربَّاني.
فكيف تفحص نفسك وتعرف أن الله سبحانه عَدَّكَ من
عباده الآمين؟ كتبنا الله وإياكم منهم.

كُلُّ ذلك مبسوطٌ في القرآن، فتشّ واقراً بتدبُّرٍ تجدُ
تلك البشارة، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

نقِّ إيمانك، وصَفِّهِ من الشرك والمعاصي، واحتطِّ
من أحابيل الشيطان وتأويله وإغرائه، وتدبَّر بلاغة
القرآن وعظمته، فقد وردت كلمة اللباس مرتبطةً
بالإيمان، واللباس يعني الغطاء، فلا تُغْطِّي إيمانك

بِالْهَنَاتِ وَالزَّلَاتِ، واحذر الهفوات يكن لك الأمن
الربّاني، ومن نال أمن الله فاز! ﴿وَلْيَأْسُ الثَّقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾

[الأعراف: ٢٦].

وفي القرآن آيات كثيرة تعرفُ بها حالك، وأين أنت
من رضا الله؛ فَمِنْ أَمْنِهِ وَرِضَاهُ أَنْ يَكْتُبَكَ مِمَّنْ تَسْتَغْفِرُ
لَهُمْ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، وَيَا طُوبَى لِمَنْ شَمَلَهُ اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ
الْعَرْشِ ودَعَاؤُهُمْ، وما أبركه من دعاء يشمل الصالحين
من الأَحِبَّةِ؛ يَشْمَلُ الْوَالِدِينَ، وَالزَّوْجَ، وَالذَّرِيَّةَ. رَبَّاهُ اكْتَبَنَا
مِنْهُمْ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

إي والله، إنه الفوز العظيم! أجهّد نفسك، واعملِ
الصالحات، واجتنبِ السيئات، لا يَغُرَّتْكَ أَنْ ضَحِكْتَ
الدُّنْيَا لَزِيدٍ أَوْ ابْتَسَمْتَ لِعَمْرٍو، فالدوامُ مُحَالٌ!

ارجع للقرآن دوماً، وافحص نفسك مع إرشاداته،
واعمل بما قضى به تعيش آمناً. لقد وعد الله من جمع
بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في الحياة
الدنيا، وبالجزاء الحسن في هذه الدار، وفي دار
القرار، وذلك هو الأمن ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

كلُّ يودُّ الحياةَ الطيبة، والعيشةَ الهنية، والنعيمَ في
الآخرة.

اطمئن واقرأ وَعَدَ اللهُ، وهنيئاً للفائزين بوعدِ الله!
يَعِدُ - سبحانه - كلُّ مؤمنٍ يعمل الصالحات، بمغفرة
ذنوبه، ومحو سيئاته وبالأجر العظيم، وحين يصفُ اللهُ
ذاك الوعد بالعظيمة، وهو العظيم جَلَّالُهُ فَإِنْ مَا سَوْفَ
تلقاه في الآخرة، هو فوق خيالك، وأعظم مما تتصور،
وهو الأمن الذي يتمناه الكل، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩]. وفي
آية أُخرى يردُّ وصف الوعد وعظم أجره ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٧].

أخي في الله، بادِرْ وسابقْ لعمل الصالحات تَقَرُّ بالأجر العظيم، وتَنَلِ الأجر الكبير!

واقْرَأ القرآن وأنت مُتَدَثِّرٌ بخشية الله وخوفه، واجْعَلْ خوفك من الله معك كل حين تسعدُ بأجر الله الكبير، وأمنه العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

هذا، ولو قرأنا التاريخ لعرفنا أَنَّ الدنيا قطارٌ سائرٌ، ويبقى العمل الصالح والذكر الحسن، فالخليفة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا حضرته الوفاة «دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، وقال: إنك -يا أمير المؤمنين- قد فَطَمْتَ أفواهَ أولادِك عن هذا المال.

فحبَّبَذا لو أوصيتَ بهم إليَّ أو إلى من تفضُّله من أهل بيتك.

فلما انتهى من كلامه، قال عُمر: أجلسوني.

فأجلسوه، فقال: قد سمعتُ مقالَتَكَ يا مسلمة، أمَّا قولُكَ: إني قد فَطَمْتُ أفواهَ أولادي عن هذا المال.

فإني والله ما منعتهم حقاً هولهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً ليس لهم.

وأما قولك: لو أوصيت بهم إليّ، أو إلى من تفضله من أهل بيتك. فإنما وصيّ ووليّ فيهم الله، الذي نزل الكتاب بالحق، وهو يتولى الصالحين.

واعلم يا مسلمة أن أبنائي أحد رجلين: إما رجل صالح متّق، فسيغنيه الله من فضله، ويجعل له من أمره مخرجاً.

وإما رجل طالح مكبّ على المعاصي، فلن أكون أول من يعينه بالمال على معصية الله تعالى.

ثم قال: ادعوا لي بنيّ.

فدعَوْهم، وهم بضعة عشر ولداً.

فلما رآهم ترقرت عيناه، وقال: بنفسي فتية تركتهم عالية لا شيء لهم.

وَبَكَى بُكَاءً صَامِتًا. ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّ.
إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكُمْ خَيْرًا كَثِيرًا. فَإِنَّكُمْ لَا تَمُرُّونَ بِأَحَدٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ أَهْلِ ذِمَّتِهِمْ إِلَّا رَأَوْا أَنَّ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
حَقًّا.

يَا بَنِيَّ، إِنَّ أَمَامَكُمْ خِيَارًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

فَأِمَّا أَنْ تَسْتَغْنُوا، وَتَدْخُلَ أَبْوُكُمْ النَّارَ.

وَأِمَّا أَنْ تَقْتَتِرُوا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ.

وَلَا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ إِنْقَازَ أَيْبِكُمْ مِنَ النَّارِ
عَلَى الْغَنَى.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِمْ فِي رِفْقٍ وَقَالَ: قُومُوا عَصَمَكُمُ اللَّهُ.
قُومُوا رَزَقَكُمُ اللَّهُ.

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ مُسْلِمَةٌ وَقَالَ: عِنْدِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ
ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟

قال: لدي ثلاث مئة ألف دينار. واني أهبها لك
ففرّقها فيهم. أو تصدّق بها إذا شئت.

فقال له عمر: أو خير من ذلك يا مسلمة؟

قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟

فقال: تردّها إلى من أخذت منه؛ فإنها ليست لك
بحق.

فترقرقت عينا مسلمة، وقال:

رَحِمَكَ اللَّهُ - يا أمير المؤمنين - حيًّا وميتًا.

فَقَدْ أَلَنْتَ مِنَّا قُلُوبًا قَاسِيَةً.

وَذَكَّرْتَهَا، وقد كانت ناسية.

وأبقيت لنا في الصالحين ذِكْرًا.

ثم تَتَبَعَ النَّاسُ أَخْبَارَ أَبْنَاءِ عُمَرَ مِنْ بَعْدِهِ.

فَرَأَوْا أَنَّهُ مَا احتاجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا اقْتَرَعَ.

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ؛ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا
مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾
[النساء: ٩]»^(١).



(١) صور من حياة التابعين: عبد الرحمن رأفت الباشا (٢٦٣-٢٦٦).

الأسوة الحسنة

إِسْرَحْ فِي خِيَالِكَ، وَتَذَكَّرْ مَنْ نَالُوا إعجابك، وَوَدِدَتْ
أَنْ تُقْلِدَهُمْ، وَتَمَنَّيْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُمْ، لَنْ تَجِدَ بَيْنَ قَدِيمِهِمْ
وَمَتَأَخَّرِهِمْ كَامِلَ الْأَوْصَافِ، لَكِنْ افْتَحِ الْمَصْحَفَ تَجِدُ
فِيهِ الْأُسُوَّةَ الْحَسَنَةَ، وَتَلَقَّ خَيْرَ مَنْ تَقْتَدِي بِهِ!

افْتَحْ كِتَابَ اللَّهِ يُرْشِدَكَ لِمَنْ تَهْتَدِي بِمَنْهَجِهِ! هُوَ
كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْفَحْصُ الذَّاتِي الْكَامِلُ.

إِنَّ فِي الْقُرْآنِ أَزْكَى الْوَصْفَاتِ الْعِلَاجِيَّةِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ،
وَفِيهِ أَوْضَحُ التَّوْجِيهَاتِ لِرَاغِبِي النِّجَاحِ، إِنَّ الْقُرْآنَ
يَدُلُّكَ لِلْأُسُوَّةِ الْحَسَنَةِ وَالْقُدُوةِ الْمُبَارَكَةِ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ
فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوَّةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

[الأحزاب: ٢١].

إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو خيرُ البشرية، وهو القدوة الحسنة، زكاه الله، وخلّد تذكّيته في كتابه الخالد.

ابحث عن صفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واقرأ سيرته، وتعرف على سجاياه، اتّبِعْها، قلِّدها، حاكها.

اعْرِضْ نفسك على كتاب الله واقرأ قصصَ أنبياءِ الله ورُسُلِهِ، وانظرْ في قُدواتك مَنْ هُمْ؟ وكيف هُمْ؟ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

لقد زكّاه الله - سبحانه - رسولنا محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبانا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه، ورغبنا في السير وفق منهجهم، والعمل بهديهم، والافتداء بهم، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

هيا نقرأ سِيرَ الأنبياء والرسل في القرآن الكريم؛ لنعرف صبرهم وتحملهم أذية أقوامهم؛ فأبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ سخرّوا منه، وقذفوه في النار فأنجاه الله. ورسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بقي في مكة ثلاث عشرة سنة،

يدعو ويتحمل صنوف الأذى والسخرية، ويجد المشقة ولم ييأس، صبر وتحمل، ورَجَى وأمل! تعددت أمامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العقبات، وتَفَاءل وطَمان أصحابه، وقال: «والله لِيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذُّنُوبَ عَلَى غَنَمِهِ»^(١).

وتكرّر في القرآن التوجيه للعمل وفق هديه وتوجيهاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ [الحشر: ٧].

وجاء الأمر الرباني بطاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فكيف نفعل عن اتباع منهجه؟! ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وربط - سبحانه - محبته بمحبة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) أخرجه البخاري، (٩/٤٣٥ رقم ٢٨٥٢).

إن القرآن خير مُرشدٍ لاختيار القدوة، لقد كان
صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النموذج الكامل، وصف اللّهُ - سبحانه - خُلُقَهُ
بالعظمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

أدرك نفسك، واقرأ سيرته صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واجعله قدوتك
وإمامك. لقد قرن - سبحانه - الإيمان به وبرسوله
وقرآنه، فاعمل قبل يوم الحسرة والندامة، يوم الجمع
والتغابن، وحينئذٍ لات مندم ﴿فَأَمْنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي
أَنْزَلْنَا وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ
يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٨، ٩].

علينا أن نبحت ونفتش عن أخلاق الرسول وصفاته
صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويا حبذا لو دونناها بخط كبير، وزينا بها
مكاتبنا ومجالسنا!

إن صفاته نبراسٌ ومشعلٌ نهتدي به!

من صفاته الصبر والحلم؛ إذ عابه قومه وآذوه،
وتنوّع أذاهم الجسدي واللفظي؛ ألقوا عليه سلا الجزور،

وهو ساجدٌ يُناجي رَبَّهُ، وحاصروه وجوَّعوه، وهمَّوا بقتله، وكسروا أسنانه، وأدموا جسده الطاهر، فصبر ودعا لهم، وأطلقوا ألسنتهم ببذيء الكلام؛ قالوا: ساحر، وكذاب، ومجنون، وسفيه.

وقالوا: أبتَر.

وقالوا: أَذْنٌ.

وقالوا، وقالوا.

وردَّ الله عليهم؛ بأن قرعهم، وعابهم، وأكد سبحانه سجايه التي يجب أن نتعلمها ونقتدي بها، فقال تعالى:

﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

لقد جسَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصبر في أعظم صوره؛ إذ أرسل الله له ملك الجبال؛ ليأتمر بأمره، فاستأذنه

أن يُطبق على أهل مكة جليلها الشامخين، فأبى وصبر
ورجا لهم الخير، وقال: لعل الله أن يُخرج من أصلابهم
من يعبد الله.

وحين عابه المنافقون فيما بينهم بالمدينة بأنه
مُجْرَدٌ (أُذُنٌ) يُصَدِّقُ كُلَّ مَا يَسْمَعُ، جاء الخبر من
السماء بفضحهم وتقريعهم وبيان صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
فالله من فوق عرشه يُبَيِّنُ صفاته؛ إنه عظيم كبير
يسمع قولهم السيئ ويتناساه، ويصبر عليهم، ويتحمل
فظاظتهم، إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُمنحُ أُمَّتَهُ دروسًا في التغابي
والتجاهل، أين نحن من حلمه وصبره! ما أن نسمع
كلمة جارحة إلا وتتورم الأنوف، وتجفو القلوب، في
حين يعلمنا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرفق في تعامله مع
قومه، فكان كما قال عنه عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أُوذُنُ خَيْرٌ﴾.

إن كُلَّ صِفَةٍ من صفاته تحتاجُ لكَتَبٍ تُعَرِّضُهَا
وتُشرحها؛ شجاعته وقوته في الحق، رحمته وإيثاره،
رفقه وكرمه، فصاحته وبيانه، حلمه وعفوه.

حقاً إنه القدوة الحسنة، نعجز أن نحصي سجاياءه،
وحقاً إن القرآن خير زاد، وخير فاحص، وخير دواء
للذات الإنسانية.



اقرأ القصة

سيتبادر إلى ذهنك تساؤلٌ يقول: وما علاقةُ
الفحصِ الذاتي بالقصة والاستطراد؟
وحيث تعيشُ مع القصة، وتستحضرُ أحداثها تتبينُ
لك الدلالة.

في ساحة البلقاء بالأردن، سنة ثمانٍ من الهجرة،
كانت القصة، فهناك كان العجب العُجاب. اعرض
نفسك على أبطال تلك الملحمة، وتخيل أنك تجلسُ
لأحدهم، تسأله عن ذاك اليوم التاريخي في الإسلام،
ثم تأمل نهاية القصة، وافحص نفسك، ودقق أين
أنت يا عبدَ الله من أولئك الرجال، الذين زكاهم الله

في القرآن، وأثنى عليهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
 اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾
 [الأحزاب: ٢٣]. يقول التاريخ: «وصل الجيش الإسلامي
 الذي سَيَّرَهُ رَسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو مُؤَتَةَ، كان عددهم
 ثلاثة آلاف مُقاتِل، وحين وصلوا إلى هناك عرفوا أن
 الجيش الرومي ومناصريه يفوقونهم مئات المرات،
 فتشاوروا، ثم عقدوا العزم على اللقاء: فإِذَا النصر
 أو الشهادة، وهناك في سهل البلقاء صارت المعركة،
 واشتدَّت المواجهة، ورأى البطل جعفر بن أبي طالب،
 قائده زَيْد بن حارثة يخِرُّ صريعًا، فيلتقط الراية فورًا،
 ويمضي ورجاله يُلاطِمُونَ أمواج البشر المتدافعة
 نحوهم، ويزدادُ الضغطُ على المسلمين، فيَصْمُدُّ
 الإيمان، ويقفزُ قائدُ الجيش جعفرُ من فرسه، وفي
 لمح البصر يعقرُ فرسه الشقراء، ويعلو تكبيره: اللَّهُ
 أَكْبَر، اللَّهُ أَكْبَر، اللَّهُ أَكْبَر. وتتجاوبُ حناجرُ المسلمين
 بالتكبير، فتَهْتَزُّ الأرضُ، وترتجُّ تكبيرًا وإقدامًا! ويثبت
 القائدُ المسلم، ورجاله يجالدون الأعداء، ويجندلون

الخصوم! إنها الشجاعة والجرأة، ومهارة القائد وإقدامه، ينحرُ فرسه، ويثبت على الأرض يتحدّى. قُل لي بربك، أيُّ شجاعةٍ بعد هذا العمل؟! إنها شجاعةٌ تعجزُ الأقلام عن وصفها! وأيُّ يقينٍ بعد هذا الفداء؟ وأيُّ تحدٍّ بعد تلك القفزة ونحرِ فرسه؟! لقد ملأ اليقينُ قلب جعفر، وفاض الإيمان غزارةً، وبدا الثبات من القائد ورجاله كالجبال الرواسي، بل أثبت وأجرأ من كُل ما يخطر على البال؛ مئة ألف من الروم، ومن نصارى العرب مئة ألف أخرى، يتصدّى لهم ثلاثة آلاف مقاتل، يقودهم حسب وصية رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فإن أُصيب فجعفر بن أبي طالب، وإن قُتل جعفرُ فعبد الله بن رواحة. لقد كان رسول الله ﷺ يدرك أهمية هذه الغزوة، وخطرها، فاختار لها ثلاثةً من رهبان الليل وفرسان النهار.

إن القوم بقائدهم، يتقدّمهم نحو الموت، ويفترس رجاله الأعداء افتراس الأسدِ لفرائسها، ويثبت القائدُ

جعفر بعد قتل القائد السابق زيد، ويتكاثر الروم عليه،
أدركوا مقدرة البطل، فكأنه جيشٌ لوحده، بسواعده
الطاهرة يُجندِلُ الفرسان، ويمضى قُدماً كال موج يُغطي
أمواج الكفر والجبروت، وتكاثر عليه الرومُ وأعوانهم،
وأحاطوا به، وركّزوا عليه، فضربوا بالسيوف يدهُ
اليمنى، فتطير تلك اليد الطاهرة، وتتقاطر دماؤها
الزكية، فيمسك الراية بيده الأخرى، ويمضي يزار
ما كأنه أُصيب، ويجندل الخصوم. ويتتابع المهاجمون
عليه، وتلحق يده الأخرى بأختها، فيزدادُ نزيْفُ دماءه،
فما اهتزَّ ولا جَبُن، احتضنَ الراية بحُضنه، ومضي
يشقُّ الصفوف، وحوله الأسدُ الضواري، يَفْرُونَ الأعداء
فرياً، وخصومهم يتقافزون يُمْنَةً وَيَسْرَةً، وتتحامى
الضباع، وتتكاثر الوحوش، وتتمكنُ رماحهم وسيوفهم
من قتل جعفر، ويخرُ صريعاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعُمُرُهُ ثَلَاثُ
وثلَاثُونَ سَنَةً؛ عُمَرُ الْفَتَوَّةِ وَنِضَارَةُ الْحَيَاةِ. مضى وقد
أعذر إلى ربه، سقط وقد ناله أكثرُ من تسعين طعنةً
في نحره وصدره، ويَرَوْنَ جسده الطاهر فيما بعد،

وقد كانت الضربات بشطّره الأمامي، وما مسَّ الكفرة خلفه بطعنةٍ ولا وخزة، لقد كان مُقبلاً عليهم بوجهه؛ ما تحرّف، وما أدبر، وما استطاعوا مُخاتلته وضربه من الخلف ولو بضربةٍ واحدة. إنها الجرأة والصرامة العجيبة! يقول عبد الله بن عمر: «كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَّةٍ»^(١).

وفي روايةٍ أُخرى لابن عمر: «لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي دُبُرِهِ، يَعْنِي فِي ظَهْرِهِ»^(٢).

قُولُوا بِرَبِّكُمْ أَحْقِيقَةً تِلْكَ الْبَطُولَاتُ وَالتَّضَحِيَّاتُ أَمْ خَيَالٌ أَمْ حُلُمٌ أَمْ وَاقِعٌ؟ لقد كان مشهداً حقيقياً يُؤكّد الإيمان في أبهى صورهِ، رجالٌ صدّقوا ما عاهدوا الله عليه، باعوا دنياهم بآخرتهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٢١/١٠) رقم (٤٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١/١٠) رقم (٤٢٦٠).

وما أن تفيض روح جعفر إلى بارئها، إلا وملائكة الرحمة تتلقاه، ويصطف له جناحان يطير بهما مع الملائكة، ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم المشهد في مؤتة بالأردن، وهو في المدينة المنورة على بعد مئات الكيلوات، يرى صلى الله عليه وسلم جعفرًا بين الملائكة، وقد فاز الفوز الحق، ونال الثواب الفوري والجزاء الأوفى، ويُطلق عليه لقب الطَّيار، وأنعم به من لقب حقيقي يطير مع الملائكة إلى الفردوس الأعلى!

يقول صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيته في الجنة. له جناحان مُضَرَّجان بالدماء. مَصْبُوغ القوادم»^(١).

ويأخذ الراية حسب وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم القائد الثالث عبد الله بن رواحة، ويقا تل بجرأة وشجاعة، ويسرع إليه ابن عم له بقطعة لحم ليشد بها صلبه، وينهس منها نهسة ثم يرميها، ويندفع نحو ملاقاته

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/٣٠٠ رقم ١٢٢٦).

القوم، ويتقدم فيقاتل حتى استشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أن يأخذ الراية خالد بن الوليد، وقد أدرك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطورة الموقف، فأعاد تنظيم الجيش، وبَدَّلَ الميسرةَ باليمينه، واستدار بالقوة البسيطة، وجعلَ قسمًا من المقاتلين يتقدمون من الخلف، وكأنهم أمدادٌ جديدة، فأربك الروم، ثم انسحب خالدٌ بالجيش المسلم، وأنقذه بعد أن أثخنَ في الروم، وكان عدد قتلى المسلمين ثلاثة عشر شهيدًا.

هذا ومن معجزاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أنه أخبر أصحابه باستشهاد القادة الثلاثة وعيناه تذرِفان بالدموع قبل أن يأتيه الرسول بالخبر، وأخبرهم باستلام خالد للراية، وبشرهم بالفتح على يديه. والمراد بالفتح في هذا الحديث الصحيح: إما الانسحاب المنظم الناجح، وإما ما أوقعه المسلمون بالروم من خسائر رغم تفوقهم العددي^(١).

(١) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية: د. أكرم ضياء العمري (٢/٤٦٩).

وفي رواية لابن إسحاق في السيرة قال: «لما أُصِيبَ جعفرُ زار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجته أسماء بنت عُمَيْسٍ، وقال: اتئني بني جعفر (محمد، وعبد الله، وعوف). قالت: فأتيته بهم، فتشمتهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما يُبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أُصيبوا هذا اليوم. قالت: فقمْتُ أصيحُ، واجتمعتُ إليَّ النساء، وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهله، فقال: لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»^(١).

روى البخاري في صحيحه عن قيس بن أبي حازم قال: «سمعتُ خالد بن الوليد يقول: لقد دُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، وصبرتُ في يدي صفيحةٌ لي يمانية»^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥/٢٦-٢٧٠٨٦ رقم)، والطبراني في المعجم

الكبير (١٤٣/٢٤ رقم ٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، (١٠/٣٢٦ رقم ٤٢٦٦).

هذا هو النموذج الأمثل للمسلمين في الدفاع عن دينهم، والتصدي للكثرة العاوية نحو عقيدتهم!

هؤلاء هم قدوة المسلمين في كل مكان وكل زمان!

هذا هو الإيمان الواجب التحلي به في الذود عن دين الله، ولئن تغيرت وسائل القتال، فقد تغيرت وسائل الدفاع؛ فجاءت التقنية بقوتها الناعمة، تلجُّ القلوب وتنسلِّك في الصدور!

لقد جاء القرآن أمراً بقراءة تاريخ هؤلاء الرجال القدوات، ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ هَيْجَرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا يَبْصُرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

فهلاً فحسنا أنفسنا لنعرف أين نحن منهم!

وهلاً قرأنا تاريخ أولئك السابقين الذين أثنى القرآن على سيرهم، فنتخذهم قدوات نفتي أثرهم!

وهلاً عرضنا بذلنا وخدمتنا لديننا، وكيف نحن منهم؟ لقد بان الهدف من عرض هذه القصة التي

أشار القرآن الكريم لأبطالها، وما لهم من النعيم؛
لِنَزِنَ أَنْفُسَنَا، وَنَتَشَبَّهَ بِهِمْ؛ لَأَنَّ التَّشَبُّهَ وَالِاقْتِدَاءَ بِأُولَئِكَ
الرجال فيه الأمن والصلاح.



أَوْ تَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ؟

وَمَنْ لَا يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ؟!

الكل يَتَمَنَّى رَحْمَةَ اللَّهِ، وَيَتَرَجَّأُهَا، وَفِي الْقُرْآنِ بَيَانُ
طَرِيقِ الرَّحْمَةِ!

افْتَحِ الْمَصْحَفَ، وَقَلِّبْ صَفَحَاتِهِ، وَسَوْفَ تَجِدُ نُورَ
اللَّهِ يَتَلَأَلُّ، وَيَهْدِيكَ لِمَنْهَجِ الرَّحْمَةِ.

سَوْفَ تَرَى مَنَارَاتِ الضِّيَاءِ وَالطَّمَأْنِينَةِ!

إِي وَاللَّهِ قَسَمِي، سَتَجِدُ الْفَحْصَ الشَّافِي وَالْبَيَانَ
الْهَادِي، اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

لئن عملت سيئةً، وجئتَ لربك تائبًا، صادق الأوبة،
تتأسفُ أن غلطت، وتندم أن هفوت، وتعزم ألا تعود،
فسوف تجد مغفرة الله ورحمته! دع القلق وامضِ
مبتهجًا في حياتك، فأنت في رعاية أرحم الراحمين
وأكرم الأكرمين! لكن الحذر من المعصية، فعذابُ الله
شديدٌ للعصاة المصيرين على المعصية، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

ورحمةُ الله واسعةٌ للتائبين النادمين، المتقين،
المؤتئين الزكاة، المؤمنين بآيات الله، ووعده ووعيده.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

اسرَحْ مُتدبرًا في كتاب الله، تجد البهجة والسعادة
والراحة النفسية، ومتى ما أنستَ نفسك واطمأننتَ
ستشعر بالبهجة والأنس، فبادرْ واجعلِ المصحف
رفيقك وصاحبك كُلَّ حين!

افتح سورة الأعراف، واقرأ هذه الآيات المتلاحقة،
واعمل بمدلولها، فنورها بيّن واضح كالشمس الساطعة
في رابعة النهار!

اقرأ التوجيه الرباني باتباع الرسول ﷺ، فقد
سبقت البشارة به في كتب الله السابقة، وقد جاء بالخير
والفضل يأمر بالمعروف، وبما فيه خير البشرية، وينهى
عن المنكر، وعن كل عمل سيء. رسول مبارك يكشف
الخبائث، وضرر البشرية، ويهديهم الفضائل، ومآلات
اجتناب المعاصي.

ركّز في قراءتك ثناء الله على الرسول ﷺ:
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وتأمل ما دونه علماء التفسير حول هذه الآية، يقول
الشيخ ابن سعدي في تفسيره: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ

النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ احتراز عن سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والسياق في أحوال بني إسرائيل، وأن الإيمان بالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي؛ لأنه من العرب الأمّة الأميّة، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب. الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه، وينهى عنه. وأنه يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه. وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر. فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحله وحرمه، فإنه يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاقِحِ. وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاقِحِ، وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ. وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه، ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال. فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ أَي: عظموه وبجلوه وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ وَهُوَ الْقُرْآنُ، الَّذِي يَسْتُضَاءُ بِهِ فِي ظِلْمَاتِ الشُّكِّ وَالْجَهَالَاتِ، وَيَقْتَدِي بِهِ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَقَالَاتِ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الظَّافِرُونَ بخيري الدنيا والآخرة، والناجون من شرهما؛ لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح. وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه، وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون»^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص ٢٠٥).

أخي في الله، أنت أعرفُ بنفسِكَ من غيرك، والله أعلمُ بك من ذاتك! ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

سبحانه غفورٌ حلِيم!

افتح المصحفَ تَلَقَّ الطمأنينةَ والفرجَ!

استرخِ، واستعدِّ أقوالك وأعمالك، وتذكَّرْ خطأك وخَطْلَكَ، وتأمَّلْ سيرتك!

فهل أخطأت في عبادتك؟

وهل قصَّرت في تقوى الله، فارتكبت مُحرماً، وعملت مُشتبهاً؟

وهل ظلمتَ نفسك بعمدٍ أو جهلٍ؟

وهل تعدَّيتَ على حقِّ غيرك وظلمته؟

افتح المصحفَ، واقرأ بتدبر وتمعن، تعلم أن الله عفوٌّ غفورٌ، وهو -سبحانه- شديدُ العقاب!

بادِرْ بالتوبة الآن، واندِمْ على ما فات، واعزمْ بأن لا تعود ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

إن الله يعلم كل أعمالك، وهل خطؤك بجهلٍ أو بعمد! أسرعْ وتبَّ وكفرْ عن أخطائك، وتصدقْ، فهو التواب الرحيم.

افحص نفسك مع القرآن كلَّ حين، وبادِرْ بالتوبة ولا تُسوِّفْ وتؤجل ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [النساء: ١٨].

إذا غفلت وتناسيت فقد يُفاجئكَ الموتُ ولات مندَم، ولا توبة، وإنما حسرةٌ وعذاب. نسألُ الله السلامة.

أنت وكلُّ فردٍ هو الأعلمُ بنفسه، وهو الأدرى بخطئه؛ فقد يكون الخطأ بسبب الجهل، ولهؤلاء حكمٌ عند الله،

اعرضْ حالتك تلك على القرآن، وافحصها بالقرآن
تجد التشخيصَ الحقَّ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

تُبْ وتداركْ نفسك، وأصلحْ حالك.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

احذر رفقة أهل الشهوات وصحبتهن، إنهم يجربونك
للسوء ويرغبونك في المنكر، ويحسنون لك المعصية
ويدفعونك للانحدار الشديد ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ
وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يريد الله
أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨].

ربَّاهُ لك الحمد، أنتَ الحليمُ الغفور، وأنتَ الرحيمُ
الودود، نستغفرُكَ ونتوبُ إليك ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ
نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

تَكْفِيكَ أَوْزَارِكَ!

ديننا الإسلامُ كاملٌ، كَمَلَهُ اللهُ وَرَضِيَهُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وبهذا الكمال اتَّضَحَتْ أُمُورُ الْعِبَادَةِ!

فكيف أنت وأداؤك لأوامر الله واجتنابك زواجره!
هل تعي أُمُورَ الْعِبَادَةِ؟

أَمْ تَتَسَاهَلُ وَتَحْسِبُكَ تَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ؟

إِنْ شَأْنُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ عَظِيمٌ، لَكِنْ يَغْفُلُ الْبَعْضُ
فَيَقُولُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَيَحْسِبُونَ الْأَمْرَ يَسِيرًا! تَكْفِيكَ
أَوْزَارَكَ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنِّي وَعَنْكَ!

احذر أن تقول رأياً بتعجُّلٍ، فيتأثر به آخرون!
فتحمّل أوزارهم، وتُحاسبُ بما لم تفعله!

ارجع للقرآن، وافحص نفسك، وتسرّعك، سترى
تحذير الله، اقرأ قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾
[النحل: ٢٥].

تريّت في القول، تثبّت في الرواية، يكفيك وزرك
وأثامك، فكيف تتحمل وزر غيرك؟

تحمّل خطأ غيرك بسبب ضحالة علمك الشرعي
ونقصه، كن حذراً في قولك، لا تروما تجهله، واحذر
القول بالظن!

نسمع البعض يستبيح المال العام، ويستسهل
التطفيف في الوقت وأداء الأعمال، ويسخر من مُلتزمي
الأمانة، فيصفهم بالدروشة والغباء!

هذا تشريعٌ ووزرٌ تحملته، فكيف تدفع غيرك لعمله؟!

أنت بهذا تتحملُ وِزَرَ ذاك الذي دفعتهُ للتطفيف
والتقصير في أداء الأمانة!

يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه الحسن: «من دعا إلى هُدًى فأتبع عليه وعُملَ به فله مثل أجور من اتبعه، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وأيما داع دعا إلى ضلالةٍ فأتبع عليها وعُملَ بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً. ثم قرأ الحسن ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾»^(١).

أخي: يكفيك ثِقْلُكَ وَزَلَّاتُكَ، ستسأل عنها يوم القيامة ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

يقول الشعرأوي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ النفس البشرية لها أحوال متعددة؛ وإذا أسرفت على نفسها في تلك الجوانب، فهي قد تُسرف

(١) تفسير القرطبي (٣٢١/١٣). وقال: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرجه مسلم. وانظر: الكشف والبيان: أبو إسحاق الثعلبي النيسابوري (٢٧٤/٧)، روح المعاني، الألوسي (١٤٢/٢٠).

في الجانب الأخلاقي، والجانب الاجتماعي، وغير ذلك، فتأخذ وزر كل ما تفعل.

ويُوضّح هنا الحق سبحانه أيضًا أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضِلُّ نفسًا غيرها، فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلّتها، إلا ما نتج عن الإضلال؛ فيقول: ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ذلك أن النفس التي تمّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال، والحق - سبحانه - أعدل من أن يُحمّلَ حتى المُضِلُّ أوزارًا لم يكن هو السبب فيها؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا: ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: أن المُضِلَّ يحمل أوزار نفسه، وكذلك يحمل بعضًا من أوزار الذين أضلّهم؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال.

وفي هذا مُطلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى، فالذين تمّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم.

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أن يدفعهم لذلك مَنْ أضلَّوهم، فهم يتحمَّلون تبعاتها وحدهم، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبوها.

وقد حسم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك حين قال: والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بغير له رُغَاءٍ، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيَّعَرُ^(١).

وقِسْ على ذلك من سرق في الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس^(٢).

عن عمرو بن عوف المزني: «مَنْ أَحْيَا سَنَةً مِنْ سَنَّتِي، فَعَمِلَ بِهَا النَّاسُ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ ابْتَدَعَ بَدْعَةً، فَعَمِلَ

(١) أصل الحديث عند البخاري (١٦/٥٠٠ رقم ٦٦٣٦)، ومسلم (٣/١٤٦٢ رقم ١٨٣٢).

(٢) تفسير الشعراوي، (١٣/٧٨٦٦-٧٨٦٧).

بِهَا، كَانَ عَلَيْهِ أَوْزَارٌ مِّنْ عَمَلٍ بِهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِ
مِنْ عَمَلٍ بِهَا شَيْئًا»^(١).

وبعدُ، إنه القرآن وسُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيهما
النَّجاة، تَعَلَّقْ بهما وتَدَبَّرهما، وَاقْرَأْ مَا قَالَه الْعُلَمَاءُ
الرَّبَانِيُّونَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ!

احْذَرِ الْقَوْلَ بِرَأْيِكَ، اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

نَسْمَعُ بَعْضَ الْمُتَقَفِّينَ يَقُولُونَ أَقْوَالًا فِي شَأْنِ الْعِلْمِ
الشَّرْعِيِّ، فِي حِينِ نَجْدِهِمْ فِي عُلُومِ الطَّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ،
يَقُولُونَ: اتْرَكُوا الْأَمْرَ لِأَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ!

كَمْ مِنْ كَلِمَةٍ نَطَقُوا بِهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَتَأَثَّرَ بِهَا سَوَاهِمُ،
وَعَمِلُوا بِمَحْتَوَاهَا، فَتَحَمَّلُوا وَزْرَهَا!

وَكَمْ مِنْ مَقَالٍ تَحَذَلُ بِهَا كَاتِبُهُ، وَتَفِيْقُهُ بِمَحْتَوَاهُ،
وَتَحْمَلُ إِضْلَالَ قُرَّائِهِ!

(١) أخرجه الترمذي (٤٥/٥ رقم ٢٦٧٧)، وحسنه.

وكم من مقابلةٍ تلفزيونيةٍ عرضَ فيها مُدَّعٍ شُبْهَةً،
فشَوَّشَ ولَبَّسَ، ودفعَ للغوايةِ وشجَّعَ!

وكم من منتسبٍ للخير غرَّتْهُ شهوةُ الدنيا وزهرتُها، فسارَ
في ركابِ الغاوين، فتحملَ إضلالَ غيره، ونالَ أوزارهم!

وهناك آخرون يستسهلون أداءَ الحقوق، ويدعون غيرهم
لمجاراتهم في ضعف الأمانة، فيتحملوا الأوزار والآثام!

أتذكَّرُ موقفًا لزملاء لي في العمل، عندما كُنْتُ
معلمًا في بداية حياتي الوظيفية، رأوني أراجع واجبات
طلابي في جلسة استراحةٍ بين حصتين، فأسرعوا نحوي
وقهقهوا، وقالوا: زارك المشرف التربوي، وكتبَ تقريره،
فكيف تتعبُ نفسك بالمراجعة والجدِّ؟ اتركْ هذه الجدِّية،
وتعال معنا نقضي الوقت بالفكاهة والدعابة!

وقال أحدهم: لا تكن مُغفلاً، وتُجهِدْ نفسك!

نسي أولئك الكرامَ الكاتبين، وغابت عنهم الرقابةُ
الربانية، وتجاهلوا الوفاءَ بأمانةِ العملِ وعدمِ التطفيف!

لقد حذّر القرآن من التعجل في القول، ووجهه برّد الأمور للعلماء المُستنبطين، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وفي الأثر: «يذهب العلماء، ثم يتخذ الناس رؤوساً جهلاً، يُسألون فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلون»^(١).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَفْتَى بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ»^(٢).



- (١) جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر (٩٨٨/٢ رقم ١٨٨٤). وأصل هذا الأثر حديث متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٨٨/١٨ رقم ١٠٠)، ومسلم (٢٠٥٨/٤ رقم ٢٦٧٣)، ولفظه: «إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً، ولكن يقبض العلماء، فيرفع العلم معهم، ويبقى في الناس رؤوساً جهلاً، يفتونهم بغير علم، فيضلون ويضلون».
- (٢) أخرجه أبو داود (٣٤٥/٢ رقم ٣٦٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٠٦٨).

الخبر اليقين

انظرْ لخارطةِ الكرةِ الأرضيةِ، واستحضرْ ملايين البشرِ المُنتشرين في أرجائها؛ كُلُّهم يُوقنون بالموت؛ المسلم والكافر، اليهودي والنصراني، الملحّد والبوذي، السّيخي والكنفوشي. كُلُّ الأجناس يرون أحبّتهم وقد صاروا جُثثاً، ويجزعون لفقدهم، ويقفون عاجزين عن ردِّ هذا القضاء الحتمي.

هذا الأمرُ واقعٌ لا محالة، كُلُّ البَشَرِ مُتَيَقِّنُونَ بوقوعه، لكنَّهُم مُختلفون لما بعد الموت، والقرآن فيه البيان والفحص الكاشف للحقيقة.

اقرأ آخر سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرَ لَكُمْ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ

غَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿الواقعة: ٨٣-٩٦﴾.

واقراً سورة التكاثر ترى الحقيقة والفحص النافي للجهالة. وعندما تُحْمَلُ على الأكتاف للقبور ستري علم اليقين، وعين اليقين حقيقةً، وستعرف أنك في زيارة للقبور، وكل زائر لا بد له من عودة، ستعود لك الحياة، ويتم لك الحساب ﴿أَلَهْنُكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿التكاثر: ١-٨﴾.

وتدبّر قوله تعالى في وصف مشهد الاحتضار: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿الواقعة: ٨٣-٨٧﴾.

ها هو حبيبكم مُتمدّد وأنتم حوله حضورٌ، ترقبون أنفاسه، تسمعون زفيره وشهيقه، والملائكة يقتربون، ولكن لا ترونهم. وقد يكون هذا المُحتضر في غرفة العناية المُركزة، وحوله كبارُ الأطباء، وبجواره أبنائه وأحبابه وسُلطته وماله، ويودُّ بعضهم لو يفتديه بنفسه، وأنى له ذلك. في تلك اللحظات يستلُّ ملكُ الموت رُوحَه، وفورًا يرى الميِّتُ ما كان غائبًا.

يرى علماء اللغة العربية أن حروف العطف تختلف دلالتها، فتقول: جاء محمد وخالد وناصر؛ أي جاؤوا معًا في وقتٍ واحد، وتقول: جاء محمد ثم خالد ثم ناصر، أي جاؤوا على التراخي، الواحد تلو الآخر، وتقول: جاء محمد، فخالد، فناصر؛ أي جاؤوا متتابعين فورًا، هذا بعد ذاك مباشرة.

وفي هذه الآية جاء العطف بالفاء الفورية، فيُخبرنا الله -سُبْحَانَهُ- أنه فور استلال الروح يرى الأموات أين هم صائرون ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ٨٨ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَتْ نَعِيمٌ﴾ ٨٩ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ٩٠ ﴿فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ٩١

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿١٢﴾ فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٣﴾ وَنَصْلَةٍ جَحِيمٍ ﴿١٤﴾

[الواقعة: ٨٨-٩٤].

إن هذه الآيات تجلية وكشف لما بعد الموت، أصناف ثلاثة، فور خروج الروح يرى الميت: أين هو من هؤلاء الأصناف؛ المقربون، أصحاب اليمين، المكذبون؟

أخي في الله، هل تنتظر حتى تموت لترى أين أنت؟ أم تفحص نفسك الآن الآن، وتعرف أين مكانك؟

تَحاوِرْ مُلحدٌ مع مُؤمنٍ:

قال الملحد: يا هذا تراني استمتع بحياتي، أتلذذ بدنياي، وما منعت نفسي عن هواها، ولا أجهدت ذاتي؛ فلا صليت، ولا صمت، ولا زكيت، ولا حججت، ولا تعبدت، ولا تنفست. فما بعد الموت فناء، وأنت حرمت نفسك ملذات الدنيا، وتعبدت وتعبت، وبعد الموت لا شيء.

قال المؤمن: وإذا قبلت زعمك فنهايتنا الموت، لكن ما بعد الموت، إن كان الأمر كما هو في معتقدي

وديني، فلي الجنة الخالدة ولك العذاب الخالد،
ولا ينفك الندم ولا الألم، وإن كان الأمر كما زعمت
فقد انتهى كل شيء.

اقرأ كتاب الله، وافحص ذاتك، طالما فيك نفس
يتردد.

انظر أين أنت الآن؟ البدار البدار، والسرعة
السرعة.

جاء في القرآن الكريم: ﴿عَلَّمَ الْيَقِينَ﴾ و﴿عَبَّ الْيَقِينَ﴾
و﴿حَقُّ الْيَقِينَ﴾، وتوضيح ذلك؛ أن علم اليقين، هو وصول
الخبر يقيناً لا شك فيه؛ كأن يصف لك شخص ثقة
حبة الموز؛ بأنها صفراء مستطيلة بانحناء، فهذا علم
اليقين. وعين اليقين هو أن ترى حبة الموز وتحسها
بيدك، فتجدها صفراء مستطيلة بانحناء كما وُصفت
لك. وحق اليقين هو أن تأكل حبة الموز، فتكون بذلك
قد عرفت شكلها، وتيقنت من حقيقتها بأكلِك إياها
ولمسها ورؤيتها.

وهنا في هذه الآية يُخبرنا الله - سبحانه - أنه فور خروج الروح يرى الميّت مكانه، ويعرف تلك المنزلة التي تكون بمرتبة حقّ اليقين: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥﴾ فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ [الواقعة: ٩٥-٩٦].

ورد في تفسير القرطبي عن قتادة قال في هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسَّرَ بِتَارِكٍ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَقِفَهُ عَلَى الْيَقِينِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَيَقَنَ فِي الدُّنْيَا فَتَنَفَعَهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَأَيَقَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ لَا يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ»^(١).

ولهذا، أخي في الله، يُوجبُ عليك يقينك بالقرآن وإيمانك به أن تتدبّره وتفحص نفسك مع أوامره ونواهيه ومندوبه، فهل تفعل؟

ويقينك بالقرآن يدفعك أن تتبع ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم به، فتأخذ بهديه، عن عروة عن

(١) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (١٧/٢٣٤).

عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفثُ، فلما اشتدَّ وجعُه كُنْتُ أقرأُ عليه، وأمسحُ بيده رجاءَ بركتها»^(١).



(١) أخرجه البخاري، (٤٦٢/١٢) رقم ٥٠١٦، ومسلم (١٧٢٣/٤) رقم ٢١٩٢.

خشوع القلب

قلتُ لِرِفاقِ قُرْبَةٍ لا قِرابَةَ: تعالوا نتذاكرُ ونفحصُ
قُلُوبَنا لنعرف هل هي سالكةٌ طريقَ الخشوعِ؟

يا رفاقي، تنبّهوا فقد نعى الله - سبحانه - على
كثيرين غفلةَ قلوبهم، وكيف هي قاسية ناسية ذَكَرَ الله
وَقَرَّانَه الخالد ﴿فَوَيْلٌ لِلْفُتُوسِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

لقد تناول القرآن الكريم القلوبَ كثيرًا، ونبّه
لأهميتها، فبها يكون الإبصار الحق، وبها تتحقّق الرؤيةُ
المؤثّرة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[الحج: ٤٦].

نسأل الله نُورَ البصيرة.

قال أحدُ الرفاق: وكيف أفحص ذاتي وأعرف
خشوع قلبي؟

قلت: يجب أن تعرف أولاً معنى الخشوع؟

قال ابن القيم: «الْخُشُوعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْإِنْخِفَاضُ،
وَالذُّلُّ، وَالسُّكُونُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾
[طه: ١٠٨]؛ أَي سَكَنتْ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ، وَمِنْهُ وَصَفُ الْأَرْضِ
بِالْخُشُوعِ، وَهُوَ يُبْسُّهَا، وَإِنْخِفَاضُهَا، وَعَدَمُ ارْتِفَاعِهَا
بِالرِّيِّ وَالنَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٢٩].

والْخُشُوعُ: قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ
وَالذُّلِّ»^(١).

وقساوة القلب؛ داءٌ وبلاءٌ -نسأل الله النجاة
والسلامة منه- وَرِقَّةُ الْقَلْبِ وَخُشُوعُهُ لِذِكْرِ اللَّهِ؛ نِعْمَةٌ
وَطُمَأْنِينَةٌ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ

(١) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، (١/٥٢١).

مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد: ١٦].

«عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قُرِئَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَعِنْدَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَبَكَوا بَكَاءً شَدِيدًا، فَنَظَرَ
 إِلَيْهِمْ فَقَالَ: هَكَذَا كُنَّا حَتَّى قَسَتْ الْقُلُوبُ»^(١).

إن هذه الآية الكريمة تنبيه وإيقاظ؛ فالآن الآن، أدرك
 نفسك، والآن الآن، احزم أمرك أيها المؤمن، لا تغتر
 بإيمانك، وتحسب أنك خاشع القلب، فالله - سبحانه -
 يعيب الغافلين، ويحثهم على الخشوع والإنابة! فهل يا
 ترى نقرأ هذه الآية ونستيقظ من غفلتنا؟

وهل نستحضر فحص قلوبنا ونتعرف أين هي؟
 أغافلة لاهية، أم هي قاسية لاعبة، أم يا ترى هي ناعمة
 ساهية، أو أنها ناسية مؤجلة؟ وكيف نعمل لتلين قلوبنا؟
 يا رفاقي: افحصوا ذواتكم، وتعرفوا من القرآن؛
 أنتم تخشعون لذكر الله أم مسوفون؟

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (٤/٧٧).

احرصوا أن يكون أصدقاؤكم معشر قُرْبَةٍ تآلفت قُلُوبهم في الله، وخشعت قُلُوبهم لله، فاحرصوا عليهم، عاشروهم، اقتربوا منهم، فإنهم مُجْتَمِعٌ يُذَكِّرُونَكُمْ بالله، ويهدونكم للأعمال الصالحة!

قرأت في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي من رسالة عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب قال فيها: «ولعمري إنك أقرب منه - يقصد أبا بكر رضي الله عنهم أجمعين - إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرابة، ولكنه أقرب منك قُرْبَةً، والقرابة لحمٌ ودم، والقُرْبَةُ رُوحٌ ونَفْسٌ؛ وهذا فرقٌ عرفه المؤمنون؛ ولذلك صاروا إليه أجمعون»^(١).

قول في الصميم، فكم من قُرْبَةٍ وعلاقةٍ، ترجح بقربات لحمٍ ودم، فاحفظوا قُرْبَةً أولئك الأحبة؛ فهم نادرون، ندرة بيض الأنثوق^(٢).

(١) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تحقيق حسن السندوبي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٣٤.

(٢) في المثل أعز من بيض الأنثوق. والأنثوق: العقاب، وقيل طائر أسود يشبه

اقرأوا سِيرَ العلماء الربانيين، وتَعَرَّفُوا كيف عاشوا
حياتهم؟

ذاك الإمامُ الزاهدُ مالك بن دينار، من كبار التابعين
توفي عام ١٣١هـ، اشتهر بخدمة القرآن الكريم. «حدث
جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار يقول: «يا حملة
القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع
المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض. فإن الله ينزل الغيث
من السماء إلى الأرض، فيصيب الحسَّ، فتكون فيه الحبة
فلا يمنعها نتنٌ موضعها من أن تهترأ وتخضر وتحسُن،
فيا حملة القرآن: ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب
سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟»^(١).

وكان للإمام مالك قدرةٌ عجيبةٌ في التأثير وإيصال
الموعظة إلى القلوب بحاله وبقلمه، «فعن السري بن

الرَّخْمة، أو أسودُ أصْلَحَ الرأسُ أَصْفَرَ المِنْقَارِ، و(هو أعزُّ من يَبِضُ الأنوق)؛
لأنها تُحَرِّزُهُ فلا يَكَادُ يُطْفَرُّ به؛ لأنَّ أوكارها في القَلَلِ الصَّعْبَةِ. لسان العرب/
مادة أنق.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، (٢/٢٥٨).

مغلّس السّقطي: أن لصّاً دخل بيت مالك بن دينار، فما وجد شيئاً، فجاء ليخرج فتداه مالك: سلام عليكم، فقال: وعليك السلام، قال: ما حصل لكم شيء من الدنيا، فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضاً من هذا المركن، وصلّ ركعتين، ففعل، ثم قال: يا سيدي أجلس إلى الصبح، قال: فلما خرج مالك إلى المسجد، قال أصحابه: من هذا معك؟ قال: جاء يسرقنا فسرقتاه»^(١).

وذاكم الفضيل بن عياض تُوفي عام ١٨٧هـ، سمع هذه الآية بقلبه فهزّته وغيّرت حياته: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال القرطبي في تفسيره: «وَأَمَّا الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ فَكَانَ سَبَبُ تَوْبَتِهِ أَنَّهُ عَشِقَ جَارِيَةً فَوَاعَدَتْهُ لَيْلًا،

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، (١٣٨/٨).

فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَقِي الْجُدْرَانَ إِلَيْهَا إِذْ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ:
﴿الَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، فَرَجَعَ الْقَهْقَرَى
وَهُوَ يَقُولُ: بَلَى وَاللَّهِ قَدْ آنَ، فَأَوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى خَرَبَةٍ، وَفِيهَا
جَمَاعَةٌ مِنَ السَّابِلَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ لِبَعْضٍ: إِنَّ فُضَيْلًا
يَقْطَعُ الطَّرِيقَ. فَقَالَ الْفُضَيْلُ: أَوَاهُ! أَرَانِي بِاللَّيْلِ أَسْعَى
فِي مَعَاصِي اللَّهِ، قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَخَافُونَنِي! اللَّهُمَّ
إِنِّي قَدْ تَبْتُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْتُ تَوْبَتِي إِلَيْكَ جِوَارَ بَيْتِكَ
الْحَرَامِ^(١).

يقول الشيخ ابن سعدي عند تفسيره لهذه الآية:
«أي: ألم يجيء الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخشع
لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره،
وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا
فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى،
ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون
المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا
أنفسهم على ذلك، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، (٢٥١/١٧).

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثَبَّتُوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزل لها الله، وتُتَاطَقَ بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك سببٌ لقسوة القلب وجمود العين^(١).

وقال النابلسي في تفسيره: «اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُعَاتِبُ هذا الإنسان المُقَصِّرَ الذي لم يخشع قلبه لِذِكْرِ اللَّهِ سبحانه، ولم يستجب لأمر الله تعالى، ولم يلتزم منهج الله عَزَّجَلَّ، فإيا أيها الإنسان، إلى متى أنت غافل؟ وإلى متى أنت ساهٍ؟ وإلى متى أنت مُقَصِّرٌ؟ وإلى متى أنت مغلوبٌ على أمرك؟ ماذا بعد الإهمال؟ أَلَمْ يَحْنِ الوقتُ المُناسبُ للتوبة والإيمان؟ ما لهذا الإنسان يقرأ القرآن فلا يتأثر؟ وما له يقرؤه فلا يقشعر جلده؟ وقد قال

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٨٤٠).

تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] (١).

الجبالُ بصلابتها وقسوتها لو نزل عليها القرآن لاهتزّت وذلت وخشعت، وابنُ آدمٍ ساهٍ سادرٌ مسكين!

إنّ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تدعونا إلى المسارعة بالخشوع لذكر الله، وينبغي لمن قرأها أن تنهمر عيناهُ بالدموع، ويوجل قلبه بالخشوع، ويتذلّل لله، ويقول: بلى يا ربّ، بلى؛ أن الأوان، أن الأوان!



(١) تفسير النابلسي، سورة الحديد، آية: ١٦.

نِصَالُ احذرْها

تأمل القرآن الكريم تجد فيه فيضاً من سجايا
الخير والبناء المجتمعي، وافحص نفسك: أين أنت من
تلك القيم الحميدة، التي أمر القرآن الكريم بها، وتلك
الخصال البغيضة، التي نهى القرآن الكريم عنها!

افتح القرآن، وانظر لتلك السجايا التي تهدم
المجتمعات، وتأخذها للتخلف والفناء، فاحذرْها!

لقد جاء في كتاب الله الكامل التعريف بخصال
نصّ الله - سبحانه - أنها بغيضة، وأنه لا يُحبّها، فهل
نعرف تلك السجايا، التي لا يُحبّها الله؟

اقرأ القرآن بتدبّر، وتأمل تعرف ذلك.

من تلك السجايا التي لا يُحبُّها الله الفساد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

نصت هذه الآية أن الله لا يُحبُّ الفساد؛ فذاك الذي منحه الله المال، أو سُلطة الحكم، أو الجاه والحظوة، إذا تعدَّى، وجار، وأفسد، خرج من قاموس الحب الإلهي؛ لأنه خالف الوصفة الربانية والسنن الكونية، التي أرشده الله للعمل بها، فأفسد علاقته مع خالقه، وأصبح مفسداً في الأرض التي سخرها الله له، وغدا إنساناً غير صالح في نظر الله، وغير محبوب.

مما ذكره الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره لهذه الآية، قال: «الله لا يحب الفساد، وإذا كان لا يحب هذا الفعل، فإنه لا يحب من اتصف به؛ ولهذا جاء في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، والله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين. فالفساد نفسه مكروه إلى الله، والمفسدون أيضاً مكروهون إليه لا يحبهم، وإذا علّق انتفاء المحبة على وصفٍ، فقد يؤخذ منه أن

المحبة تثبت فيما يقابله من الوصف، فإذا كان لا يحب الفساد، فهو يحب الصلاح، وكذلك المصلحون، حتى قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. فالله تعالى يحب المصلح، ويحب الصلاح أيضاً^(١).

ومن الأعمال التي ذمَّها القرآن وأمر باجتنابها الربا -والعياذُ بالله- فأكلُ المال الحرام منكراً يُمقِّتُهُ اللهُ ولا يحبه، والممارسُ له، المُستحلُّ له، المخالفُ نَهَى اللهُ عنه كافرٌ آثِم. فحذارٍ منه، فاللهُ يُمقِّتُ الربا، ويحبُّ الصدقات. فكنْ عبدَ اللهِ المُجتنبَ الربا، المُتصدِّقَ تكن محبوباً لله ﴿يَمْحُ اللهُ الرَّبْوَ وَيُرِي الْمَصْدَقَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

يقول الشيخ ابن سعيدي: ﴿يَمْحُ اللهُ الرَّبْوَ﴾ أي: يذهبه ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه، ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر

(١) تفسير ابن عثيمين، سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

عليه، بل يكون زاداً له إلى النار ﴿وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ أي: ينمّيها، وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه، وينمّي أجر صاحبها؛ وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس، وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربّه أكرم منه، فيحسن عليه، كما أحسن على عباده ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شرّه عباد الله ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته»^(١).

وصفة الكبر والتعالي على الخلق والفخر، مكروهة عند الله، فلا تغتر بمالك وسلطانك وجاهك، فقد أخرج الكبر إبليس من الجنة، والله لا يحب المستكبرين ﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ١١٧).

واحذر التّعالى والمرح الزائد والفخر والغرور، فالله لا يحبُّ المختال الفخور، فما أعطاك الله من ميزة وتمييز؛ مالٌ أو علمٌ أو عقلٌ، فلا تغترّ بذلك العطاء، فالله قادرٌ على سلبه. كن حذرًا، ولا تفرح، اعتدل في مشيك وقصدك يحبُّك الله ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال الشيخ ابن سعيدي: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تملّه وتعبس بوجهك الناس؛ تكبرًا عليهم، وتعاظمًا. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطرًا؛ فخرًا بالنعمة، ناسيًا المنعم، مُعجبًا بنفسك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في نفسه وهيئته وتعاظمه ﴿فَخُورٍ﴾ بقوله^(١).

وفي آية الإحسان يردُّ ذمَّ المختال الفخور ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٦٤٩).

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

هذه الآية الكريمة تأمرُك عبد الله، بالتذلل لله،
وإفراده بالعبادة، وبذل الإحسان للوالدين، ولذوي
القربى، والجار، وابن السبيل المنقطعة به الحال،
والترفق بالخدم والإماء، وجميع ما تحت يدك، حتى
البهائم امنحها عطفك، التمس رحمة الله، وتذل لله،
ولا تتكبر على أولئك الخلق، فالله لا يحب المختال
الفخور المتعالي على أولئك المحتاجين.

قال الشيخ ابن سعدي عند تفسيره لهذه الآية:
«من قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع
لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق
الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه
عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع
للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه
فخور بقوله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي:
معجباً بنفسه متكبراً على الخلق، ﴿فَخُورًا﴾ يثني على

نفسه، ويمدحها على وجه، الفخر والبطر على عباد الله، فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر، يمنعهم من القيام بالحقوق»^(١).

وَحَصْلَةُ الْخِيَانَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَالْغَدْرُ وَالْخَدِيعَةُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ أَيْضًا، فَاحْذَرِ ذَاكَ السَّلُوكَ ﴿وَلَا تُجَدِّلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

قال الشيخ ابن عثيمين: «من فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من الخيانة؛ لكون الله تعالى نفي محبته للخائن الأثيم، والترغيب في أداء الأمانة؛ لأنه إذا وقع الذم على وصفٍ لزم أن يكون المدح في ضده»^(٢).

وحتى مع عدوك احذر الخيانة، وأوف بعهودك، فالله لا يحب الخيانة ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص ١٧٨).

(٢) تفسير ابن عثيمين، سورة النساء، آية ١٠٧.

دينٌ عظيمٌ حتى مع الأعداء يحفظُ العهدَ، ويمنعُ
 خيانتهم وخديعتهم، فكيف بمن يخونُ ويخدعُ ويتحائلُ
 ويتأولُ! ربَّاهُ، نسألكَ الثباتَ ونورَ البصيرة.

والتشهير ونشر قالة السوء لا يحبهما الله فاحذرهما،
 وإذا هممت بالحديث عن خبر سيئٍ حول هذا الشخص
 أو ذاك فأمسك لسانك، فالله لا يحب التشهير، بل يحب
 العفو ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا
 عَلِيمًا﴾ (١٤٨) إِن بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سَوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا
 قَدِيرًا ﴿[النساء: ١٤٨، ١٤٩].

مما قال الشعراوي في تفسيره لهذه الآية: «لقد
 عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول،
 إلا إذا كنت مظلومًا. وهذا يعني أن المسألة تحتل
 الجهر وتحتل الإخفاء، فقال: ﴿إِن بُدُّوا خَيْرًا﴾ أي إن
 تظهر الخير، أو تخفي ذلك، أو تعفو عن السوء. وكل
 هذه الأمور من ظاهر وخفي من الأغيار البشرية، لكن
 شيئاً لا يخفى على الله. ولا يمكن أن يكون للعفو مزية
 إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة، فإن كان عاجزاً

لما قال: عفوت. وسبحانه يعفو مع القدرة. فإن أردت أن تعفو فلتخلق بأخلاق منهج الله، فيكون لك العفو مع القدرة. ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزي أو نستذل، ولكن يريد منا أن نكون قادرين، وما دمنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة، وهذه هي المزية الإيمانية؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً^(١).

ومن السجايا التي لا يُحبُّها الله، التعدي والتشدد بتحريم ما أحلَّ الله، فذاك لا يجوز، فديننا دين السماحة واليسر، فإياك والتعدي والفتوى أو القول أو النقل بتحريم ما أحلَّ الله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

قال الشيخ ابن سعدي: «يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم،

(١) تفسير الشعراوي، (٥/٢٧٦٢-٢٧٦٣).

واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء. والله قد نهى عن الاعتداء، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك»^(١).

وفي آية أخرى ورد النهي عن التعدي في الدعاء، ففي دعائك لله لا تجور وتتعدى، فالله أعلم بك منك، كن مترقفاً متضرعاً متخفياً في دعائك، وليكن دعاؤك بحق، فالله لا يحب التعدي في الدعاء ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال الشيخ ابن سعدي: «الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿نَضُّعًا﴾ أي: إلحاحاً في المسألة، ودُءُوباً في العبادة، ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: لا جهراً وعلانية، يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٢٤٢).

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور. ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

عن سعد بن أبي وقاص: «أَنَّ سَعْدًا سَمِعَ ابْنًا لَهُ يَدْعُو، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَاسْتَبْرَقَهَا. وَنَحْوًا مِنْ هَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا. فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَتَعَوَّذْتَ بِاللَّهِ مِنْ شَرٍّ كَثِيرٍ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ. وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ»^(١).

(١) عمدة التفسير (٣٠/٢). أخرجه الإمام أحمد (٧٩/٣-٨٠ رقم ١٤٨٣)، وحسنه محققو مسند الإمام أحمد.

والإسراف في الأكل والتخمة والتبذير سجية
لا يحبها الله، فاحذر السرف والعبث المالي؛ اشرب
باعتدال، وكلّ باعتدال، كن وسطاً لا تسرف في
ولائمك، واترك الشهرة والقليل والقال، فرضا الله أولاً،
إن الله لا يحب المسرفين: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ
مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال الشيخ ابن سعدي: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما
رزقكم الله من الطيبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك، والإسراف
إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في
المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة
الترف والتنوق في المآكل والمشارب واللباس، وإما
بتجاوز الحلال إلى الحرام.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر
بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال
إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه

الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما»^(١).

روى الزمخشري في تفسيره: «وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلْ مَا شِئْتَ، وَابْسِ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ خَصْلَتَانِ: سَرْفٌ وَمَخِيلَةٌ»^(٢)، ويحكى أَنَّ الرشيد كان له طبيبٌ نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء. والعلم علما، علم الأبدان وعلم الأديان»^(٣)، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيءٌ في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطبَّ في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال قوله «المعدة بيت الداء، والحمية رأس

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري تعليقا (٤٤٧/١٤).

(٣) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٨٤).

الدواء^(١)، وأعط كل بدنٍ ما عودته^(٢). فقال النصراني:
ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً^(٣).

وفي آية أخرى وفي سياق إنعام الله على خلقه بثمار
الأرض وخيراتها، نهى الله عن الإسراف، فقال تعالى:
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا
أَتَمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾
[الأنعام: ١٤١].

ذكر عدد من المفسرين أن النهي عن الإسراف
حتى في الصدقة؛ بحيث لا يُبقي لعياله شيئاً.

قال مكي بن أبي طالب في تفسيره: «روي أن قوله:
﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ نزل في ثابت بن قيس لما صرم نخله، خلى

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (رقم ١٠٢٥): لا يصح رفعه إلى
النبي، بل هو من كلام الحارث بن كلدة.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢١٤): لأن في ثبوت هذا الحديث
كلاماً للمحدثين.

(٣) الكشف: الزمخشري، (٢/٩٦-٩٧).

بين الناس وبينه كله، فلم يبق لأهله شيئاً منه، فنزل ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾؛ أي: في العطاء، فتبّقوا لا شيء لكم^(١).

وقال الشيخ ابن سعدي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يعمُّ النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحدِّ والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضرّ بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع؛ بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضرّ نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبّه الله، بل يبغضه ويمقت عليه. وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصاها في الزرع، وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة؛ لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده. وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه: القيسي القيرواني الأندلسي، (٢/ ٢٢١٢).

لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده. وقد كان النبي ﷺ يبعث خارصًا يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث أو الربع، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره، من أهلها، وغيرهم»^(١).

والعفوسجية الكرام، فكن كريمًا مفضلاً، اعفُ واصفح وتجاوز، وإياك والانتقام والظلم والبغي، فالله لا يحب الظالمين ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «ذكر الله في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

(١) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٢٧٦).

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو والإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يجب أن يعامله الله به، فكما يجب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عَنْهُمْ، وكما يجب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٧٦٠).

هذا وبعدُ، فإنها سجايا بيَّنها سبحانه في كتابه
الكريم تتبَّعها واعرفها وافحص نفسك معها، وأين
أنت منها!

جعلنا الله ممَّن أنار بصائرهم، فعرفوا وعلموا
واستتاروا، وكتبنا الله ممن يحبُّهم ويحبُّونه!



ذوو القربى

كيف أنت وقراباتك؟ هل تصلُّهم ويصلُّونك؟

في القرآن الرشاد والهداية، والخير والصلاح والإصلاح. جعل الله لذوي القربى حقًّا في مالك، وقَدَّمَهُم في العطاء والصدقة ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

قال ابن كثير في تفسيره: «لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرَّ الْوَالِدَيْنِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «أُمُّكَ وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَلَا أَقْرَبَ»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٠/٢٣) رقم (٢٠٠٢٨)، وصححه محققو المسند، والترمذي (٣٠٩/٤) رقم (١٨٩٧)، وحسنه، وكذا حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٨/١) رقم (٨٩٥).

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ وَيُسَأَّ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ»^{(١)(٢)}.

ويقول ابن سعدي في تفسيره: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ من البرِّ والإكرام الواجب والمسنون. وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة^(٣).

ويتكرر في القرآن الكريم حق ذوي القربى ومنحهم الأولوية في النفقة والرعاية، وأن في الصدقة عليهم خيراً للمنفق، ويصف -سبحانه- الباذلين بالفلاح، وطوبى لمن وَسَمَهُ ربه بالفلاح -كتبنا الله منهم- فيقول: ﴿فَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

هذا وإن الشيطان حريصٌ على الهمز والنَّزْغِ بين

(١) أخرجه البخاري (١٥/١٥٤ رقم ٥٩٨٦)، ومسلم (٤/١٩٨٢ رقم ٢٥٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٥/٦٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٤٥٦).

القربات ﴿وَمَا يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

اجعل القرآن حِرْزَكَ وَحِصْنَكَ، واقرأ فيه قِصَصِ
القدوات، وآيات التنبيه والتوجيه، واستعِذ بالله وردِّ
بقلبك وعقلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ
الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

افحص نفسك، وحدّد مقدار المسافة الآمنة بينك
وبين قراتك! صلةً وتواصلًا ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

وحين نتبع تكوين القربات نعرف أنها تبدأ
بالأسرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

لقد بَتَّ سبحانه الأنفسَ كلها من نفسٍ واحدة؛
لتنشأ الأسر، وتتكون البيوت، وتتفرع القرابات، وتنشأ
الأرحام، وتتنوع المصاهرات.

لقد جَبَلَ اللهُ - سبحانه - الإنسان على محبة
البنين، ﴿أَمْأَلُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ
عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ
مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤]. فما
أن يَفِدَ الصغيرُ إلا ووالداه يشفقان عليه، وينمو الطفل
وينمو الحبُّ مع نموه، ثم يعقبه الأخ والأخت، ويعمرُ
البيت بالإخوة والأخوات، وينظر الوالدان للأولاد نظرة
واحدة؛ يرحمون الصغير، ويُشفقون على المريض،
ويدعون للمسافر؛ لهم في القلوب مودة، وفي النفوس
عاطفة. يَحْنُونُ عليهم جميعًا أكثر من حنين الخلج على
حوارها، ويستحضرون صورهم في خيالهم؛ فهذا حبيب،
وذاك رقيق، وتلك ودودة، وأختها لعوبة.

ما أحلى لثغة صغيرهم، وأبهى طلة كبيرهم، سبحان من أوجد العواطف ومزج المحبة بكريات الدم الحمراء والبيضاء، حتى إن الوالدين يؤثران شبع أولادهم على شبعهم، ورِيَّهم على رِيِّهم، بل إن الأم ترقب قسوة الأب إن قسى وربى، فتكف خشونته وترقق تصلُّه:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً

فليقس أحياناً على من يرحم!^(١)

وتمضي الأيام وبيت الأبوة والأمومة في محبة ووئام، ولكن الشيطان يرقب مودة ذوي القربى، ويسوؤه تواصلهم؛ فيوسوس لهذا، ويخنس لذاك، ويتمكن من بعضهم، فينزغ بينهم، كما نزغ بين أبناء نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام وأخيه يوسف.

إنه الشيطان ما ترك الأنبياء، فكيف بنا نحن البشر! إنها بيوت كانت عامرة بالحب والود، ثم فرخ الشيطان وبيّض بالكراهية بينهم والقطيعة، والعداوة والبغضاء.

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي (٣/٢٧٢)، ونهاية الأرب في فنون الأدب: النويري (٧/٢٩١).

ولهذا اعتصم بالقرآن، وافحص نفسك مع القرآن،
واحذر الشيطان أن ينزغ بك؟ وأن يجنح بعواطفك؟
وهل زين لك كُره أخيك وحشاك حُنقة وغيره عليه؟
وهل باعدك عن عمك وعمتك، وخالك وخالتك؟ وهل
صدك عن ابن عمك وابن خالك؟ وهل باض وفرخ
بينك وسائر قرابتك؟

اعلم أن الشيطان كلما قُرِبَت القرابة زاد نشاطه
تفريقاً، وعظمت وسوسته كراهةً وغيظاً، يزرع
الشحناء، ويدفع للانتقام، هو يرانا، ونحن لا نراه ﴿إِنَّهُ
يَرَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] احذره وتعوذ
بالله منه.

تناسى زلة الأخ، وهفوة الأخت، وإذا جاء نمامٌ بنقل
كلمةٍ سوءٍ فازجره، وإن نقل واشٍ عبارة لَوَمٍ فانهره!
كم فرّق إبليس بين إخوة! وكم باعد أبناء عن أبيهم!
وكم قطع رحماً موصلة!

احذر أن يتلاعب بك إبليس، فإنه يجعل القبيح حسناً، والخير ضعفاً، فاحذره، وافحص نفسك مع القرآن، وتدبر كلام الله، فقصة يوسف مع إخوته خير درس للمتقاطعين.

صَبَرَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى كَيْدِ إِخْوَتِهِ، وَتَحْمَلِ أَذْيَتِهِمْ، وَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بضع سنين، فأثابه الله وكانت له العاقبة الحسنة!

وحينما فاز يوسف وصار له السلطان، وجاءه إخوته منكسرين وهم لا يعرفونه، ينشدون رفرده وعطاءه، رَقَّ لهم وعطف، ونسي وتناسى هفوتهم، واعتذر لهم عن خطئهم ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

قال أبو بكر فخر الدين الرازي في تفسيره: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فَهُوَ يَجْرِي مَجْرَى الْعُذْرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَنْتُمْ إِنَّمَا أَقْدَمْتُمْ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ الْقَبِيحِ الْمُنْكَرِ حَالَ مَا كُنْتُمْ فِي جَهَالَةِ الصَّبَا أَوْ فِي جَهَالَةِ الْغُرُورِ، يَعْنِي وَالْآنَ لَسْتُمْ كَذَلِكَ، وَنَظِيرُهُ مَا يُقَالُ فِي تَفْسِيرِ

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الْإِنْشِقَاطِ: ٦] قِيلَ: إِنَّمَا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا الْوَصْفَ الْمُعَيَّنَ لِيَكُونَ ذَلِكَ جَارِيًا مَجْرَى الْجَوَابِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ غَرَّنِي كَرَمُكَ، فَكَذَا هَهُنَا إِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْكَلَامَ إِزَالَةً لِلْخَجَالَةِ عَنْهُمْ وَتَخْفِيفًا لِلْأَمْرِ عَلَيْهِمْ»^(١).

الله أكبر ما أعظم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأحلمه، يعتذر لإخوته وقد رموه في الجُبِّ، ويعفو عن أقرب الناس إليه وقد همُّوا بقتله!

إنه القرآن الكريم يعرض القدوات لنقتدي ونتعظ! ويحثُّ القرآن على العفو والتسامح والدفع بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فَصَّلَتْ: ٢٤].

رزقنا الله التَّغْذِيَّ من مائدة القرآن، والعمل بما في القرآن. ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددٌ من الأحاديث

(١) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الفخر الرازي، (١٦٢/١٨).

الثابتة تندب لصلة الرحم؛ فعن أبي هريرة أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفُهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

وعن عائشة أم المؤمنين: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ»^(٢).



(١) أخرجه مسلم (١٩٨٢/٤) رقم (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٨١/٤) رقم (٢٥٥٥).

الرزق وقصة الفتاة

في القرآن الهداية والرضا، قال ابن مسعود: «إِرضُ بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أَوْرَعِ الناس»^(١).

افتح المصحف وافحص نفسك: كيف أنت وطلبُ الرِّزْقِ؟ هل أنت قلقٌ مُضطربٌ، أم ساكنٌ هادئٌ راضٍ بما قسم الله وقدر؟

افتح المصحف وافحص نفسك وحالتك اليومية في طلب المعيشة، ستجد الطمأنينة، ترفق ولا تقلق، فالأرزاق بيد الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

(١) أخرجه البيهقي (٢١٨/١ رقم ٢٠١)، وأبو داود السجستاني في الزهد (رقم ١٣١).

اعلم أن الأرزاق كما الآجال مخفية، وكلُّها بيد الله، وفي القرآن إيضاح ذلك ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٤].

اعمل ولا تكسل، وتوكل على الله، فالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً، والقرآن يأمرك بالعمل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

حين تنطلق في حياتك طالباً فضل الله ورزقه، استحضر هداية القرآن وتوجيهه، وافحص تورعك نحو طلب الرزق، إن في القرآن الرشاد والتوجيه، احذر الحرام، فقد جعل الله في الحلال غنى عن الحرام. توكل على الله وثق بوعدده، واقرأ بيقين وتدبر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

اجعل الله أمامك وخافه وارجه، وأصلح نيّتك تجد العوض، ارجع للقرآن كل حين تجد الفرج واليقين والرضا.

واقراً قصة الرجل والمرأة، وكيف عَفَّ الرَّجُلُ
عن الحرام وخشي الله، فعَوَّضَهُ اللهُ خيراً، اتَّقَى رَبَّهُ،
وخاف وعيده، فكانت له العاقبة الحسنة. أي نعم، جعل
اللهُ لَهُ مخرجاً، ورزقه من حيثُ لم يحتسب!

أي نعم، كم مِنْ مُمتنع عن حرامٍ خشيةَ الله، فأعطاه
اللهُ إِيَّاه حلالاً بشرعه!

حدثت القصة سنة ست مئة وثلاثين هجرية، قال
الراوي: «بينما كُنَّا عند رجل ببعض بلاد الصعيد،
فضيفنا وأكرمنا، وكان الرجل أسمر شديد السمرة،
وهو شيخٌ كبيرٌ، وحضر له أولاده حسانٌ فيهم صفاء لون.
فقلنا: يا فلان، هؤلاء أولادُ بيض، وأنت شديدُ
السمرة؟

فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية أخذتها في أيام الملك
الناصر صلاح الدين وأنا شاب، نوبةً حطين.

فقلنا: وكيف أخذتها؟

فقال: لها حديثٌ عجيب.

فقلنا: أتحننا به.

فقال: زرعتُ كِتَانًا في هذه البلدة، وقلعته ونفَضْتُهُ فانصَرَفَ عليه خمس مئة دينار، فلم يَجِبْ أكثر من ذلك، فأشير عليَّ بحمله إلى الشام، فحملته فلم يجب أكثر من ذلك، فقليل لي بَعْهُ صبرًا لعله يُرْجِعُ لك حقَّ الطريق، فبعت بعضه صبرًا إلى ستة أشهر، والبعض تركته عندي، واكتريتُ حانوتًا أبيع فيه على مهلٍ إلى حين انقضاء الستة أشهر، فبينما أنا أبيع وقد مرّت بي امرأةٌ فرنجيةٌ زوج بعض الخيالة. ونساء الفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب، فأتت تشتري مني كِتَانًا، فرأيتُ من جمالها ما أبهرني، فبعتهَا وسامحتها، ثم انصرفتُ وعادتُ إليَّ بعد أيام، فبعتهَا وسامحتها أكثر من الكرة الأولى، فتكررت إلى عندي، وعلمتُ أني أحبُّهَا، فقلتُ للعجوز التي معها: أنني قد تعلّقتُ بحبِّهَا فكيف تتحليين لي؟

فقالت العجوزُ لها ذلك، فقالت الإفرنجية: تروحُ
أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو.

فقلتُ لها: إذا ذهبَ رُوحِي باجتماعي بها ما هو
كثير. وحكت لي كلامًا كثيرًا جرى بينهما، إلى أن اتفق
الحال على أن أدفع لها خمسين دينارًا سورية وتجيء
إليه. قال: فوزنت خمسين دينارًا سورية، وسلّمتها
للعجوز، فقالت: هيئ لنا موضعك ونحن الليلة عندك،
قال: فمضيتُ وجهزتُ ما قدرت عليه من مأكولٍ
ومشروبٍ وشمعٍ وحلوى، وكانت داري مطلةً على البحر،
وكان الصيف، ففرشتُ لي على سطح الدار، وجاءت
الفرنجية فأكلنا وشربنا، وجنَّ الليل، فتمنا تحت
السما والقمريضيء علينا والنجوم تنظر في البحر.

فقلتُ في نفسي: أما تستحي من الله وأنت غريبٌ
وتحت السماء وعلى البحر، وتعصي الله مع نصرانية،
فتستوجب عذاب النار وعذاب الدنيا، اللهم إني أشهدك
أني قد عفتُ عن هذه النصرانية في هذه الليلة؛ حياءً
منك، وخوفًا من عقابك.

ثم نمتُ إلى الصبح، فقامت في السحر وهي غضبى ومَضَتْ، ومضيتُ إلى حانوتي، فجلستُ فيه، وإذا هي قد عبرت عليَّ هي والعجوز وهي مغضبة، وكأنها القمر فهلكتُ، وقلتُ في نفسي: من هو أنتَ حتى تترك هذه الجارية، أنتَ الجُنيد أو السُّري السقطي، ثم لحقتُ العجوز، وقلتُ: أرجعي، فقالت: وحقَّ المسيح ما نرجعُ إليك إلا بمئة دينار، فقلتُ: نعم، ومضيتُ إلى حانوتي ووزنتُها وجاءت إليَّ ثاني مرّة، فلحقَّتني تلك الفكرة الأولى، وعففتُ عنها، وتركتُها لله تعالى، ثم مضتُ ومضيتُ إلى موضعي، ثم عبرتُ عليَّ وكلمتني وكانت مستغربة، وقالت: وحقَّ المسيح، ما بقيتُ تفرحُ بي عندك إلا بخمسة مئة دينار أو تموتَ كمدًا، فارتعتُ لذلك، وعزمتُ أني أغرمَ ثمنَ الكتّان جميعه وأفدي نفسي، فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي معاشر المسلمين أن الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة، ليقضوا أمورهم وينصرفوا إلى بلادهم، فانقطعتُ عني، وأخذتُ أنا في تحصيل ثمن الكتّان الذي لي، والمصالحة على ما بقي

منه، وأخذت معي بضاعة حسنة، وخرجت من عكا وأنا في قلبي من الفرنجية ما فيه، فوصلت إلى دمشق، وبعثت البضاعة التي لي بأوفى ثمن؛ لانقطاع وصولها؛ بسبب فراغ الهدنة، ومن الله سبحانه وتعالى عليّ بكسب جيد، وأخذت أتجر في الجواري، عسى أن يذهب ما بقلبي من الفرنجية، ولازمت التجارة فيهن، فمضى عليّ ثلاث سنين، وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين، وأخذ جميع الملوك وفتح بلاد الساحل بإذن الله تعالى، فطلب مني جارية للملك الناصر، وكان عندي جارية حسنة، فاشتريته له بمئة دينار، فأوصلوا إلي تسعين ديناراً، وبقيت عشرة دنانير لم يجدوها في الخزانة ذلك اليوم؛ لأنه أنفق الأموال جميعها، فشاوَرُوهُ على ذلك، فقال: امضوا به إلى الخزانة التي فيها السبي من نساء الفرنج، فخيروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التي له، فأتيته الخزانة فنظرت إليها، فعرفت الجارية الفرنجية غريمتي، فقلت: أعطوني هاتيك فأخذتها، ومضيت إلى خيمتي، وقلت لها: أتعرفيني؟

قالت: لا.

فقلتُ: أنا صاحبك التاجرُ في المكان الذي جرى له معك ما جرى، وأخذت مني الذهبَ، وقلتُ ما بقيتُ تبصرني إلا بخمسة مئة دينار، وقد أخذتكِ مَلَكًا بعشرة دنانير.

فقالت: مُدَّ يَدَكَ، أنا أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، فأسلمتُ وحسُنَ إسلامها.

فقلتُ: والله لا وصلتُ إليها إلا بأمر القاضي، فرحتُ إلى ابن شداد، وحكيْتُ له ما جرى، فعجبَ وعقدَ لي عليها، وباتت تلك الليلة فحَمَلَتْ، ثم دخل العسكر فأتينا إلى دمشق، فما كان إلا شهور قلائل، وأتى رسولُ الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاقٍ وقع بين الملوك، فَرُدَّ مَنْ كان أسيرًا من الرجال والنساء، ولم يبقَ إلا امرأة الفارس التي عندي، فسألوا عنها وألحوا في السؤال والكشف، فَوُشِيَ بها أنها عندي، فطُلبتُ مني وحَضِرْتُ وأنا في شِدَّة، وقد تغيَّر لوني، فقالت: ما بدا لك؟ وما الذي أصابك؟

قلتُ: جاء رسولُ الملك وأخذوا الأسارى جميعهم وطلبوني.

فقالت: لا بأس عليك، أحضرنى إليهم، وأنا أعرف الذي أقولُ لهم.

قال فأخذتها وأحضرتها قدام السلطان الملك الناصر، والرسولُ جالسٌ عن يمينه، فقلتُ: هذه المرأة التي عندي.

فقال لها الملكُ والرسولُ: تروحين إلى بلادكِ أم إلى زوجكِ، فقد فُكَّ أسْرُكِ أنتِ وغيركِ.

فقالتُ للسلطان: أنا قد أسلمتُ وحَبَلْتُ وها هو بطني كما ترونه، وما بقيتِ الفرنجُ تنتفعُ بي.

فقال لها الرسولُ يخبرها: أيما أحبُّ إليك هذا المسلم، أم زوجك الفارس فلان؟

فقالت له كما قالت للسلطان، فقال الرسولُ لمن معه من الفرنج: اسمعوا كلامها، ثم قال لي الرسول:

خُذِ امْرَأَتَكَ وَاَمْضِ، فَوَلَّيْتُ بِهَا وَقَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيَّ عَاجِلًا،
 وَقَالَ: إِنَّ أُمَّهَا أَرْسَلَتْ لَهَا مَعِيَ وَدِيعَةً، وَقَالَتْ: إِنَّ ابْنَتِي
 أَسِيرَةٌ، وَهِيَ عَرِيَانَةٌ شَعَثَةٌ، وَأَشْتَهِي أَنْ تَرْسَلَ لَهَا هَذَا
 الْجَمْدَانِ وَتُسَلِّمَهُ لَهَا، قَالَ: فَتَسَلَّمْتُ الْجَمْدَانِ، وَمَضَيْنَا
 إِلَى الدَّارِ فَفَتَحْتُهُ، فَوَجَدْتُ قِمَاشَهَا بَعَيْنَهُ وَقَدْ صَرَّتْهُ
 لَهَا أُمُّهَا، وَوَجَدْتُ الصَّرَّتَيْنِ الذَّهَبَ؛ الْخَمْسِينَ دِينَارًا،
 وَالْمِئَةَ دِينَارٍ كَمَا هُمَا بَرَبَطَتِي لَمْ يَتَغَيَّرَا، وَهَؤُلَاءِ الْأَوْلَادُ
 مِنْهَا، وَهِيَ الَّتِي عَمَلَتْ هَذَا الطَّعَامَ^(١).

عَفَّ الرَّجُلُ عَنِ الْحَرَامِ، وَخَافَ اللَّهَ، فَعَوَّضَهُ وَمَكَّنَهُ
 بِالْحَلَالِ.



(١) مطالع البذور في منازل السرور: الغزولي البهائي (ص ٤١٨-٤١٩).

زِينَتُكَ.. وَفَضْلُ الْخَطَابِ!

تتجاذبها الدنيا ببريقها وحلاوتها!

مُتَرَدِّدَةٌ بين غريزتها وإيمانها!

حائرةٌ مع التَّجَمُّلِ وإظهار مفاتنها!

صُويَحِبَاتُ دراسة، وصديقاتُ قرابة، وزميلاتُ
عمل، يتفاوِثْنَ في عرض جمالهنَّ، وارْتِداءُ أفخر أدوات
الحلي والزينة، وهي خَجَلَى قَلِقَةٍ!

كُلُّ صباح تُؤَمُّ عملها، فهل تتجَمَّلُ أم تتخَفَّى، وهل
تتَحَجَّبُ أم تتكشَّفُ؟

أيُّ طريقٍ تختار؟ وأين فصلُ الخطاب؟

إن في القرآن الجوابَ القطعي. وفيه فَصْلُ
الخطاب، والإرشاد الواضح! والفحصُ النافي للجهالة!
افتحي أُختاه، المصحف وتدبّري آيات الحجاب،
واقرئي كيف عرض القرآن حياءَ المرأة، وابتعادها عن
مخالطة الرجال، ونظراتهم الشهوانية!

إن في الحجاب والحياء جمالاً وجاذبيةً للمرأة.
كلما تمتعتِ المرأةُ وتحجبتِ ازدادت فتنُّها، وزاد
إغراؤها!

تفننَ الغرب في إنتاج ملابس العري والفتنة، والقرآن
يأمر بالستر ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لَّا زَوْجَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

بعد هذا النص المقدس ماذا تختار الفتاة المسلمة؟
أأخذ بزخرف القول أم بقول الحق - سبحانه -!

يقول الشيخ ابن سعدي في تفسيره: «هذه الآية، التي تسمى آية الحجاب، أمر الله نبيه، أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته، لأنهنَّ أكد من غيرهنَّ، ولأنَّ الأمر (لغيره) ينبغي أن يبدأ بأهله، قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].»

أنَّ ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَيْبِهِنَّ﴾ وهنَّ اللاتي يكنَّ فوق الثياب من ملحفةٍ وخمارٍ ورداءٍ ونحوه، أي: يغطّين بها وجوههنَّ وصدورهنَّ.

ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ دلَّ على وجود أذية، إن لم يحتجبن، وذلك؛ لأنهنَّ إذا لم يحتجبن، ربما ظنَّ أنهنَّ غير عفيفات، فيتعرض لهنَّ مَنْ في قلبه مرض، فيؤذيهنَّ، وربما استهين بهنَّ، وظنَّ أنهنَّ إماء، فتهاون بهنَّ من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهنَّ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾؛ حيث غفر لكم ما سلف،
ورحمكم، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال
والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن^(١).

وفي آية أخرى يأمر - سبحانه - بغض البصر،
فكيف بفتاة تجذبُ البصر! ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
[النور: ٣٠].

وآيةٌ ثالثةٌ جمعَ الله فيها أمره للمرأة؛ بغض بصرها،
وحفظ فرجها، وإخفاء زينتها، وإرخاء خمارها ﴿وَقُلْ
لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ
إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيكَ غَيْرِ أُولِي الْإِلَافَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ
الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص ٦٧٢).

ومنع الحق - سبحانه - وهو الأعلم بالغرائز - المرأة من حركةٍ تنتج عنها إثارةٌ للرجالٍ وجذبهم لرؤية جمالها، فكيف بكِ أختاه تتخدعين، وتسلكين طريق الإثارة بلباسك الفاتن؟

اقرأ القرآن، وتدبّر هذه الآيات الهاديات، واعمل بها، فليدرك كرامٌ كاتبون، يُسجلون كلَّ زلةٍ، فالحذر الحذر.

يقول تعالى سبحانه: ﴿وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

إن تأمل هذه الآية وتدبرها خيرٌ درسٍ في الحياء والأدب للفتيات المسلمات! فهذا كلام الله - سبحانه - العالم بالغرائز البشرية. الضرب بالرجل إثارة؛ فيه حركة وإيقاع، صوتٌ وتنبية نهى عنه الله، هو أمرٌ ربّاني لكل امرأةٍ مسلمة، أن تحذر من إبداء زينتها للرجال الأجانب، وتوجيهٌ إلهي لكل سيدةٍ بعدم فتنة الرجال. إن الغرائز البشرية في الرجال نحو المرأة

غالبية؛ ولهذا ينهى سبحانه المرأة من إثارة شهوات الرجال الكامنة. إن الغرائز تجذب نظرات الرجال للبحث عن محاسن المرأة، ورؤية موطن جمالها. عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أردف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الفضل بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يوم النحر خلفه على عَجَزٍ راحلته، وكان الفضل رجلاً وضيئاً، فوقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس يُفْتِيهِمْ، وأقبلت امرأة من خثعم (وضيئة) تستفتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسننها، فالتفت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل، فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله في الحج على عباده، أدركتُ أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحجَّ عنه؟ قال: نعم»^(١).

إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمنع الفضل من النظر للمرأة الخثعمية، فليست هي من محارمه، وزينة المرأة

(١) أخرجه البخاري (٥١١/١٥) ، ومسلم (٩٧٣/٢) رقم (١٣٢٤).

ليست مباحةً للجميع، فقد حدد سبحانه المسموح لهم برؤية تلك الزينة يقول تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرَ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

وتلكم ابنتا نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ تذودان وتردّان رعاهم عن الشراب، ويقتربُ نبيُّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منهن، ويسأل لم تحجزان الرعاء عن السُّقيا؟ فيخبران موسى أنه الحذر من مخالطة الرجال! وأن والدهما شيخٌ كبيرٌ أقعده العجز؛ أي لو كان لهما رجلٌ لما جاءتا للسقيا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

امرأتان تردّان ماشيتهما عن الماء؛ حذرًا من مخالطة الرجال، وانتظارًا لانتهائهم من السُّقيا. ذاك

منهج القدوات، وطريق الفضيلة، فاحذري أختاه، من
دعاة السفور، وذئاب البشر.

كانت المرأة تأتي إلى الإمام أبي حنيفة النعمان،
شيخ الأحناف، تسأله في قضية أو تستفتيه في شأنٍ
من شؤون دينها، فيترك مكانه في الجلسة العلمية
بالمسجد، ويتجه إليها حيث تحتجب خلف إحدى
ساريات المسجد، ثم لا يلبث أن يعود إلى مكانه
العلمي، ويذكر للرجال الجالسين ما جرى من سؤال
المرأة وجوابه عليها، وهو لا يعرف من تلك السائلة،
إلا أنها طالبة علم من بنات المسلمين. إن الإمام يعلم
تلامذته ومستمعيه آداب معاملة النساء، فيقول لهم:
إنه ذهب إليها بعيداً لكي يعصمها من نظرات الفضول،
ويُحصنها من أحداق الرجال. هذا هو أبو حنيفة يعلم
أن طلابه ومريديه في المسجد، وللمسجد حشمتُه
وطمأنينته، ومع ذلك يخشى على السائلات من نظرات
الرجال الجالسين! إنها الحيطة والحذر.

وموقفٌ آخر يُجسّد حالة المرأة في الإسلام، وكيف كان الأوائل يتعاملون مع المرأة في عصورهم الزاهية. إن الإمام أبا حنيفة عاش في العصرين الأموي والعباسي، وكانت له مهابةٌ ومكانةٌ عند العامة والخاصة، لقد كانت بينه وبين الخليفة العباسي المنصور جفوةٌ وقطيعة، فقد حبسه المنصور، ثم أخرجَه من السجن، وأقام عليه حصارًا أو ما يُشبه الحصار، ومنعه من الفتوى، ومع ذلك يلجأ إليه الخليفة.

ذات مرة وقع خلافٌ بين الخليفة المنصور وزوجته الحرّة؛ لأمرٍ يتصل بالعلاقات بينهما كزوجين، فطلبت الحرّة الانتصاف لحقّها، فسألها المنصور عمّن ترضى من الفقهاء؛ لكي يكون حكمًا بينهما، فاختارت أبا حنيفة حكمًا. وأرسل المنصور إلى الإمام يستحضره، فجاء أبو حنيفة والتقى بالخليفة وزوجته الحرّة. وهنا تتجلى حالة المرأة في تلك العصور الإسلامية الوضاعة، ففي قصر الخليفة، وللنصر والسلطان مهابة، ومع شيخ الفقهاء، وللعلم وقاره، ومع ذلك تجلس زوجة الخليفة،

خلف ستار يحجب الرؤية وَيُسَمَّع الصوت! ويدور الحوار:
قال المنصور: يا أبا حنيفة. الحرّة خلف الستارة
تسمعنا تخاصمني فأنصفني منها. فقال أبو حنيفة:
ليتكم أمير المؤمنين، فقال المنصور: يا أبا حنيفة،
كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن؟
قال أبو حنيفة: أربع. قال المنصور: وكم يحل له من
الإماء؟ قال: أبو حنيفة: له ما يشاء. ليس لهن عدد.
قال المنصور: وهل يجوز لأحد أن يقول خلاف ذلك؟
قال أبو حنيفة: لا. فقال المنصور لزوجته الحرة. قد
سمعت قول الشيخ. وقبل أن تتكلم الحرّة أسرع الشيخ
لكي يكمل الفتوى. فالمنصور بدهائه وجهه إلى الإمام
أسئلة لا تُشكّل الإجابات عنها الحلّ الشرعي للقضية.
قال أبو حنيفة: للمنصور مكملًا فتواه وموضحًا الحكم
الشرعي في التعدد، فقال: إنما أحل الله هذا لأهل
العدل. فمن لم يعدل، أو خاف ألا يعدل، فينبغي ألا
يُجاوز واحدة. ويتبع أبو حنيفة الحكم بتلاوة الآية
القرآنية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ويمضي أبو حنيفة موجهًا الحديث إلى المنصور قائلاً: ينبغي لنا أن نتأدب بأدب الله، ونتعظ بمواعظه، فسكت المنصور و طال سكوته. فانصرف أبو حنيفة.

إن الدارس والمتأمل للقرآن الكريم، يجد تلك الآيات الواضحة الدلالة، التي تحت المرأة على صون زينتها، وستر جمالها، فحتى تحريك رجليها، لفت الأنظار لزينتها، يمنع الله! فكيف باللواتي يصبغن حواجبهن، ويسرحن شعورهن، ويخرجن سافرات عن حسنهن. أين هن من هذه الآية الكريمة! ربنا لا تؤاخذنا بما فعل ويفعل السفهاء منا.



الشَّهَوَات

غَلَبَتْهُ شَهَوَاتُهُ، وسأل كيف أفحصُ نفسي في القرآن
وقد أغواني الشيطان وسار بي في دُرُوبِ المعاصي، فهل
لي من توبة؟ يُؤْنِبُهُ ضميرُهُ، وتُحَدِّثُهُ نفسهُ في خلوته هل
من عودة؟

هو مُسْلِمٌ يرجو رحمة الله، لكن التزامه الديني
ضعيف، يرتكبُ بعض المعاصي؛ يُزَيِّنُ له الشيطان أنها
معاصٍ مُؤَقَّتة؛ كأس خمر، وملاعبة فتاة، وتطفيف في
أداء العمل و. و. و... إلخ. يهذي في نفسه سوف أتوبُ
وأستغفر الله، يَحَدِّثُ ذاته، وَيُهَوِّنُ من معصيته بأنه
ما ظلم هذا، ولا أخذ حق ذاك، وأنها هفواتٌ يسيرة، يَعِدُ
نفسه بالإقلاع والأوبة! فكيف يفحص نفسه في القرآن؟

بُذُورُ الْخَيْرِ مَنْغَرَسَةٌ فِيهِ، لَوْ جَذَبَهُ يَهُودِيٌّ لِمَعْبَدِهِ
 أَوْ نَصْرَانِيٌّ لِكَنِيسَتِهِ لِأَبَى وَتَعَوَّذَ، وَلَوْ حَاوَرَهُ مُلْحَدٌ لَزَجَرَهُ
 وَذَبَّ عَنْ دِينِهِ وَزَارَ. هُوَ مِنْ نُطْفَةٍ مُسَلِّمَةٍ، لَكِنْ شَهَوَاتِ
 الدُّنْيَا وَمِلَذَّاتِهَا تَغْلِبُهُ؛ يُسَوِّفُ وَيُؤَجِّلُ، نَادِمٌ وَخَائِفٌ،
 وَجِلٌّ وَقَلِقٌ. لَقِيَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَرِيبًا لَهُ قَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 بِهِدْيِ الْقُرْآنِ، فَتَبَادَلَا أَطْرَافَ الْأَحَادِيثِ وَالشَّجْنِ، إِلَى
 أَنْ قَرَأَ عَلَيْهِ قَرِيبُهُ الْمُسْتَنِيرُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ
 الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
 جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وَقَالَ لَهُ الْمُسْتَنِيرُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَمَلٌ وَفَرَجٌ، وَفِيهَا
 الْعِلَاجُ وَالشِّفَاءُ، فِيهَا الْفَحْصُ وَالِدَوَاءُ، لَا تَقْنَطُ،
 لَا تَيْأَسْ، هَا هُوَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- يُكْرِمُكَ يُخَاطِبُكَ
 ﴿يَعْبادِيَ﴾ أَنْتَ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُسْرِفُ الْعَاصِي، كُنْ مِنْ
 عِبَادِ اللَّهِ الْمُخَاطَبِينَ، لَوْ نَادَاكَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ
 لَزَهَوْتَ وَأَسْرَعْتَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ سُبْحَانَهُ؟!
 أَسْرِعْ إِلَيْهِ، وَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ، فَقَدْ يُفَاجِئُكَ الْمَوْتُ وَلَاتِ
 مِنْدَمٌ! الْحَقُّ ذَاتَكَ قَبْلَ أَنْ تَغِيْبَ شَمْسُكَ بَغْتَةً. أَنْتَ تَسْمَعُ

بموت فلان فجأة، وتشهد جنازة علان، وتسال: أكان مريضاً؟ فيأتي الجواب كان منذ ساعات يعمل ويضحك، هي الآجال مخفية ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

يا أيها المُسرف على نفسه بادر بالرجوع، واهرب من المعاصي قبل أن يحلَّ بك الأجل، ويقع العذاب، فتتحسر، وتتمنى العودة للدنيا؛ لتُكفِّر عن سيئاتك، ولكن هيهات هيهات! تدبِّر هذه الآيات ورددها، وافحص ذاتك معها، وبادر بعلاج حالتك قبل الرحيل الأبدي.

مما قاله شيخ المُفسرين ابن كثير عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: «هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْعُصَاةِ مِنَ الْكُفَرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَن تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ وَإِنْ كَثُرَتْ وَكَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ.

عن ثوبان - مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا أَحَبُّ أَنْ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ أَشْرَكَ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(١).

وعن عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْخٌ كَبِيرٌ يُدْعَمُ عَلَى عَصَا لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي غَدَرَاتٍ وَفَجَرَاتٍ، فَهَلْ يُغْفَرُ لِي؟ فَقَالَ: «أَلَسْتَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: بَلَى، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَكَ غَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ»^(٢).

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هُود: ٤٦]، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٢٣/٥) رقم (٧١٢٧)، وأبو بكر محمد بن هارون الروياني (٤٢٣/١) رقم (٦٤٨).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧١/٢٢) رقم (١٩٤٣٢)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ١٤٤).

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وَلَا يُبَالِي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّهُ يَغْفِرُ
جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَ التَّوْبَةِ، وَلَا يَقْنَطَنَّ عَبْدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ،
وَأِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ؛ فَإِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ
وَاسِعٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ
يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١١٠].

وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ
مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾^(١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴿[النِّسَاء: ١٤٥-١٤٦]﴾.

وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ
إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الْمَائِدَة: ٧٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٤٩/٤٥ رقم ٢٧٥٦٩)، وابن أبي الدنيا في حسن
الظن بالله (رقم ٧٢)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (رقم ٥٥٢).

اللَّهُ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ [الْمَائِدَةُ: ٧٤]، وَقَالَ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [الْبُرُوجُ: ١٠].

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الْكَرَمِ
وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ!
وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثُ الَّذِي قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا، ثُمَّ
نَدِمَ وَسَأَلَ عَابِدًا مِنْ عِبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: هَلْ لَهُ مِنْ
تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا. فَقَتَلَهُ وَأَكْمَلَ بِهِ مِئَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا
مِنْ عُلَمَائِهِمْ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى قَرْيَةٍ يَعْبُدُ
اللَّهُ فِيهَا، فَقَصَدَهَا فَاتَاهُ الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ،
فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَمَرَ
اللَّهُ أَنْ يَقْيَسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيِّهِمَا كَانَ أَقْرَبُ
فَهُوَ مِنْهَا. فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا
بِشَبْرٍ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ. وَذُكِرَ أَنَّهُ نَأَى بِصَدْرِهِ

عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْبَلْدَةَ الْخَيْرَةَ أَنْ تَقْتَرِبَ،
وَأَمَرَ تِلْكَ الْبَلْدَةَ أَنْ تَتَبَاعَدَ ^(١) هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: قَدْ دَعَا
اللَّهُ إِلَى مَغْفِرَتِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ، وَمَنْ زَعَمَ
أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عَزِيرًا ابْنُ اللَّهِ،
وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ،
وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ:
﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[الْمَائِدَةُ: ٧٤]. ثُمَّ دَعَا إِلَى تَوْبَتِهِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ قَوْلًا مِنْ هَؤُلَاءِ،
مَنْ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الْقَصَصِ: ٢٨]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:
مَنْ آيَسَ عِبَادِ اللَّهِ مِنَ التَّوْبَةِ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ جَحَدَ كِتَابَ
اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ أَنْ يَتُوبَ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

(١) أخرجه مسلم (٢١١٨/٤) رقم (٢٧٦٦).

وَعَنْ شُتَيْرِ بْنِ شَكْلٍ أَنَّهُ قَالَ: «سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرَجًا فِي سُورَةِ الْغُرَفِ: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَصْرِيْفًا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. فَقَالَ لَهُ مَسْرُوقٌ: صَدَقْتَ^(١).

وَقَالَ الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي الْكَنُودِ قَالَ: مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ -يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ- عَلَى قَاصٍّ، وَهُوَ يَذْكُرُ النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُذَكِّرُ لِمَ تَقْنِطُ النَّاسَ؟ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٢).

وعن أَحْسَنُ السَّدُوسِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَنَسِ بْنِ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٥/٤ رقم ٢١٧٣)، والطبراني في الكبير (٣٩/٨-٤٠ رقم ٨٥٧٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٤/٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ٥٠).

مَا لِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَخْطَأْتُكُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُكُمْ اللَّهُ لَغَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١).

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: قَدْ كُنْتُ كَتَمْتُ مِنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَوْ لَا أَنْكُمْ تَذْنِبُونَ، لَخَلَقَ اللَّهُ قَوْمًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٢).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٣).

(١) أخرجه الإمام (١٤٦/٢١ رقم ١٣٤٩٣)، والضياء في المختارة (٢/٢٣٩ رقم

١٥٤٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤/٥٩٤ رقم ١٩٥١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٨/٤٩٧-٤٩٨ رقم ٢٣٥١٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/٣٧٩ رقم ٢٦٢٣).

وعن عليّ بن أبي طالب، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفْتَنَ التَّوَّابَ»^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ -عَلَيْهِ
لَعَائِنُ اللَّهِ- قَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ
أَجْلِ آدَمَ، وَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُهُ إِلَّا بِسُلْطَانِكَ. قَالَ: فَانْتَ
مُسَلَّطٌ. قَالَ: يَا رَبِّ، زِدْنِي. قَالَ: لَا يُؤَلِّدُ لَهُ وَلَدٌ إِلَّا وَلَدٌ
لَكَ مِثْلُهُ. قَالَ: يَا رَبِّ، زِدْنِي. قَالَ: أَجْعَلُ صُدُورَهُمْ
مَسَاكِينَ لَكُمْ، وَتَجْرُونَ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ. قَالَ: يَا رَبِّ،
زِدْنِي. قَالَ: أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ، وَشَارِكْهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا. فَقَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ، قَدْ سَلَّطْتَهُ عَلَيَّ، وَإِنِّي
لَا أَمْتَنُ (مِنْهُ) إِلَّا بِكَ. قَالَ: لَا يُؤَلِّدُ لَكَ وَلَدٌ إِلَّا وَكَلَّتْ بِهِ
مَنْ يَحْفَظُهُ مِنْ قُرْنَاءِ السُّوءِ. قَالَ: يَا رَبِّ، زِدْنِي. قَالَ:
الْحَسَنَةُ عَشْرٌ أَوْ أَزِيدُ، وَالسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ أَوْ أَمْحُوهَا. قَالَ:
يَا رَبِّ، زِدْنِي. قَالَ: بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مَا كَانَ الرُّوحُ فِي

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/١٩٠ رقم ٧١٢٢)، والحاثر أبو أسامة/

الهيثمي في مسنده (الزوائد) (٢/٩٧٢ رقم ١٠٧٦).

الْجَسَدِ. قَالَ: يَا رَبِّ، زِدْنِي. قَالَ: ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(١).

وذكر البغوي في تفسيره ما يروى عن ضمضم ابن جَوْسٍ قَالَ: «دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ فَنَادَانِي شَيْخٌ، فَقَالَ: يَا يَمَانِيُّ تَعَالِ، وَمَا أَعْرِفُهُ، فَقَالَ: لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلَا يَدْخُلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ (يَقُولُهَا) أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ أَوْ لِرِزْوَجَتِهِ أَوْ لِخَادِمِهِ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَحَابِّينِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْآخَرُ يَقُولُ كَأَنَّهُ مُذْنِبٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَقْصِرْ أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ، قَالَ فَيَقُولُ: خِلْنِي وَرَبِّي، قَالَ: حَتَّى وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خِلْنِي وَرَبِّي أَبْعَثْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا،

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ت: سامي السلامة،

وَلَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ أَبَدًا. قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكَ
فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ:
ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ
تَحْظَرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟ فَقَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَقَالَ
ادْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
لَتَكَلِّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ^(١).

قَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

وبعد، هي والله، وصفة الشفاء القطعية، فلنلحق
ذواتنا ونغالب شهواتنا.

إنه القرآن الكريم دواء وشفاء. جعله الله ربيع
قُلُوبِنَا، ونُورَ صُدُورِنَا وذَهَابَ أَحْزَانِنَا.



(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤/٤٦-٤٧ رقم ٨٢٩٢)، وأبو داود (٢/٦٩٣ رقم ٤٩٠١)،

وحسنه الألباني في تحقيقه للعقيدة الطحاوية (ص ٣٥٧).

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي (٧/١٢٨).

عَدُوَّان، احذرهما

لَكَ وَلِيٌّ، وَلِكُلِّ الْبَشَرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عَدُوَّانٌ؛ أَحَدُهُمَا
أَشْرُسُ مِنَ الْآخَرِ:

الْأَوَّلُ خَفِيٌّ، وَالْآخَرُ يَتَخَفَّى.

الْأَوَّلُ عَدَاوَتُهُ مَعَكَ مِنْذُ الطُّفُولَةِ، وَالْآخَرُ لَا تَعْلَمُ
مَتَى تَتَكَوَّنُ عَدَاوَتُهُ.

الْأَوَّلُ مَعَ الْجَمِيعِ، وَالْآخَرُ قَدْ يَسْلُمُ مِنْهُ الْبَعْضُ.

الْأَوَّلُ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَرَاهُ، وَالْآخَرُ يُمْكِنُكَ رُؤْيَاهُ.

فِيَا تَرَى مَنْ هُمَا، وَكَيْفَ النِّجَاةُ مِنْهُمَا؟ وَمَا هِيَ
أَسَالِيبُ الْحِمَايَةِ الْمَتَّبَعَةِ الَّتِي تَقِيكَ شَرَّهُمَا؟

أما الأول فإبليس لعنه الله، وعداوته دائمة حتى غرغرة الموت! يروى عن صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل قال: «لَمَّا احْتُضِرَ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ جَعَلَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: لَا بَعْدُ، لَا بَعْدُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَا هَذِهِ اللَّفْظَةُ الَّتِي لَهَجْتَ بِهَا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ إِبْلِسَ وَاقِفٌ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ وَهُوَ عَاضٌ عَلَى أُصْبُعِهِ وَهُوَ يَقُولُ: قُتْنِي يَا أَحْمَدُ؟ فَأَقُولُ: لَا بَعْدُ لَا بَعْدُ^(١). يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ حَتَّى تَخْرُجَ رُوحُهُ مِنْ جَسَدِهِ عَلَى التَّوْحِيدِ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، قَالَ إِبْلِسُ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ مَا أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ.

فَقَالَ اللَّهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَلَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفِرُونِي»^(٢).

وأما العدو الآخر فإنسي من البشر، عداوته طارئة قد تزول!

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٠٥/ رقم ٨٥٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٨٣/٩)، وقوام السنة في الحجة في بيان المحجة (٥٢٥/١).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٢٧/١٧ رقم ١١٢٣٧)، والحاكم (٢٦١ رقم ٧٦٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٢/١ رقم ١٠٤)، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير، (٤٢٢/١٤).

وفي القرآن الوصفةُ العلاجيةُ لكلا العدوّين، وقد جاءت الوصفة مقترنة في ثلاث آيات من كتاب الله، وتلك الوصفةُ فيها الشفاء الحتمي.

اقرأ تلك الوصفة، ولا تجعلها تغيبُ عن ناظرِكَ، ولازمها، وافحص نفسك معها كل حين.

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١١٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

لحماية نفسك من العدو الإنسي؛ داره واعف عنه، وأعرض عن جهالته، ولا تُبادلُه عداوة، بل عامله باللين، والمصانعة كي تسَلَّ عداوته. أما العدو الشَّيطاني إبليس فالاستعاذة بالله طاردة له، مُبطلَةٌ كيدُه.

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٦-٩٨].

ذاك الإنسي، الذي تعرفُ عداوته، وتشعرُ بخشونته
أيًا كان؛ قريبًا أو زميل عمل، أو جارًا، تحمّل أذيته
واصبر، ولا تُعاجله باللوم والتقريع، أو الكيد والسوء،
وإنما بادلْ سيئته بالحسنة، وكُن أنت الأرق، تنل الفوز.
أما العدو الشيطاني، فالحجاءُ لله واستعد به يكفِكَ الله.

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا
يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ
مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

في هذه الآية الكريمة ترغيبٌ بالصبر وتحملُ
أذية عداوة الإنسي، ومدحٌ للصابر، وإخبارٌ من الله
- سبحانه - العالم بالنفوس البشرية بأن تلك العداوة
تتحول مع العفو إلى مودةٍ وصداقة، ويمدحُ الله عزَّ وجلَّ
ذاك الكابح شهوة الانتقام، الممسك لذّة البطش ومكر
الشیطان، يمدحه سبحانه بالصفات التي يحبُّها؛
بالصبر، فالله يحبُّ الصابرين، كما يصفُ جَلَّ جلاله ذاك

العافي بِعِظَمِ حُظِّهِ. وهنيئاً لمن فاز بالثناء الإلهي.
أما الشيطان فالسلامة منه بالاستعاذة بالله من شرِّه.
أعاذنا الله منه.

هذا، ونعلَمُ من هذه الآيات الثلاث، أن الله
- سبحانه - يدعو ويحثُّ على مداراة عداوة البشر
والصبر عليهم؛ ولهذا عفا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن
أهل مكة وما انتقم منهم، فحين دخل عام الفتح طأطأ
رأسه، وقال لأهل مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

إن الكراهية بين البشر داءٌ وبلاءٌ يمحَق، والعفو
والصفح نورٌ وطُمانينةٌ وخير. فكيف أنت وهذه الوصية،
افحص نفسك وتذكر مَنْ بَيْنَكَ وبينه جفوةٌ، وبادله
التحية والعفو، وتناسى هفوته وخشونته، واصفح عن
قسوته وكيده!

أما إبليسُ فلا تتفع معه مصانعةٌ ولا مداراة، فهو
ذاهبٌ إلى جهنم، ويريدنا أن نكون معه؛ ولهذا أخبرنا

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١١٨/٩) رقم (١٨٧٣٩).

- سبحانه- بكيفية النجاة منه، وذلك بالاستعاذة
(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

إن عداوة إبليس مستمرة، فهو يرانا ولا نراه ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ
هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ ولذا يُحذِّرنا الله منه
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

حتى الذين أضلَّهم إبليس وأغواهم، يشتمون
إبليس، وينسبون له كُلَّ بلاء، إلا أنهم استجابوا لدعوته
وأطاعوه، فكانوا أولياءه، فانتهى بهم الأمر للهلاك
والنار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما أنت أيها المؤمن بالله، المتَّبِعَ مَلَّةَ رَسُولِهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعداوة إبليس لك أشد، وغوايته لك أخطر،
فأنت اخترت طريق الهداية، وإبليس يُجْرُكَ لطريق
الضلالة والشقاوة.

إِنْ إِبْلِيسُ يَرْقُبُكَ وَلَا يَغْفُلُ عَنِ الْخَيْرِ الَّذِي تَعْمَلُهُ،
يُخَوِّفُكَ إِنْ تَصَدَّقْتَ بِالْفَقْرِ، وَيَأْمُرُكَ بِفِعْلِ الْفَوَاحِشِ،
وَيُجْمِلُهَا لَكَ، فَاحْذَرِهِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول الشعراوي: «الذي يسمع لقول الشيطان
ووعده، ولا يستمع إلى وعد الله يصبح كمن رجَّح عدو
الله على الله - أعاذنا الله وإياكم من مثل هذا الموقف -
إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ وَسَّوسَ لَكُمْ بِالْفَقْرِ إِذَا أَنْفَقْتُمْ، وَخَبْرَةُ
الْإِنْسَانِ مَعَ الشَّيْطَانِ تَوْكِدُ لِلْإِنْسَانِ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَاذِبٌ
مُضِلٌّ، وَخَبْرَةُ الْإِنْسَانِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَوْكِدُ لِلْإِنْسَانِ
أَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، كَثِيرُ الْعَطَاءِ لِعِبَادِهِ. وَالْحِكْمَةُ
تَقْتَضِي أَنْ نَعْرِفَ إِلَى أَيِّ الطَّرِيقِ نَهْتَدِي وَنَسِيرُ»^(١).

هَذَا، وَيُقَسَّمُ إِبْلِيسُ؛ الْعَدُو الدَّائِمُ، وَهُوَ صَادِقٌ فِي
قِسْمِهِ، أَنْ يَأْخُذَ بَنِي آدَمَ جَمِيعَهُمْ لِلْغَوَايَةِ، وَيَسْتَتْنِي

(١) تفسير الشعراوي، (٢/١١٦٣).

عباد الله المخلصين ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

فهل أنت يا عبد الله من الفريق المُخلص الذين
سَلِمَ من إبليس؟ سَلْ نفسك وافحصها، فالقرار بيدك
طالما فيك نفسٌ يتردد!

كُنْ من عباد الله الناجين، واحذر أن تكون من الغاوين،
فجهنم وأبوابها السبعة موعد الغاوين ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٢-٤٤].

يقول الرازي: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ فِيهِ قِرَاءَتَانِ: تَارَةً بِاسْمِ
الْفَاعِلِ، وَأُخْرَى بِاسْمِ الْمَفْعُولِ، فَوُرُودُهُ بِاسْمِ الْفَاعِلِ يَدُلُّ
عَلَى كَوْنِهِ آتِيًا بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ مَعَ صِفَةِ الْإِخْلَاصِ،
وَوُرُودُهُ بِاسْمِ الْمَفْعُولِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَخْلَصَهُ
لِنَفْسِهِ وَاصْطَفَاهُ لِحَضْرَتِهِ، وَعَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ فَإِنَّهُ مِنْ
أَدَلِّ الْأَفَاضِ عَلَى كَوْنِهِ مُنْزَهًا عَمَّا أَضَافُوهُ إِلَيْهِ»^(١).

(١) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير: فخر الدين الرازي (٩٤/١٨).

وجاء في تفسير ابن القيم قوله: «لما علم عدوُّ الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص، قال: ﴿قَالَ فِيعَزِّكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» [ص: ٨٢، ٨٣]. فعلم عدوُّ الله أن من اعتصم بالله، عزَّجَلَ وأخلص له وتوكل عليه، لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم»^(١).

وبعدُ فقد عرَفَتْ -رعاكَ اللهُ- أن عداوة إبليس الشَّيْطَانِي أشدُّ عداوة من ذاك الإنسي، وأن ثمة عداوة تتحول إلى صداقة، وعداوة لا يمكن تحوُّلها.

إنه كتابُ الله، افحص نفسك به تجد السَّعادة والفوز.



(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان: ابن قيم الجوزية (٩٩/١).

العلاقة الزوجية

كيف العلاقة بينكما؟ هل شابها كدر؟ تنهار بُيوتٌ،
ويضيعُ أطفال؛ لاختلافٍ أسري يبدأ يسيراً، ثم يتطور
الخلافاً، ويتهدمُ ذاك البيت العامر، وتلك الحياة
السعيدة. في الأمثال العربية «مُسْتَعْظَمُ النار من
مُسْتَصْغَرِ الشر»^(١).

إن في القرآن العلاج، اعرض نفسك عليه، افحص
تلك العلاقة مع القرآن.

لوعاد الزوجان لكلام الله وحبله المَوْصُول

(١) عجز بيت من الشعر، وصدره: كل الحوادث مبدؤها من النظر.
انظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: السفاريني (١/٨٦)، والداء
والدواء، ابن قيم الجوزية، (ص ٣٥٠).

بالسماء، وتعلقا به، وارتبطا بخيره، لوجدا العلاج والنجاة، ولأصبحت حياتهما سعيدة.

إن العلاقة الزوجية ارتباطٌ سرِّيٌّ خاصٌّ جداً،
وبتدبر الآيات التي تُشير للعلاقة الزوجية، نلاحظ أنها
تنبه الزوجين إلى أن يكونَ علاج الخلاف بينهما سرِّياً،
ولا يتدخل طرفٌ ثالثٌ في تلك العلاقة، وتساءلني كيف
أفحص ذاتي وأعالج مُشكِلتِي؟

اقرأ أول سورة التحريم: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا
بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ [التحريم: ٣].

استعمل في علاقتك الزوجية التغابي، فرسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أسرَّ لزوجته وأمرها بعدم إفشاء السر،
وخالفته، وجاءه الخبر من السماء، ترقق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في
إخبارها، وما كسر نفسيته، عَرَّفَهَا ببعض ما أخبرت
به، وأعرض عن البعض الآخر، إن في هذه الآية درساً
للأزواج؛ للرجل وللمرأة، فالتغابي منهجٌ سلكه رسول

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودَوَّنَهُ القرآن، وَبِتَنَا نتعبد الله بتلاوة هذا المنهج، فهل يعمل به الأزواج مع زوجاتهم؟ وهل تأخذ بهذا السلوك الزوجات مع أزواجهن، فيتغابين ويصبرن ولا يُخرجن أزواجهنَّ.

إن التغابي وسيلة إصلاح النفوس، فخذوها معشر الرجال والنساء، من القرآن، وطبقوها في علاقتكم الزوجية. اقتدوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلكم فيه الأسوة الحسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. يقيني أنك؛ أخي، وأنتك؛ أختاه، ترجوان الله ورضاه والفوز في اليوم الآخر، فتغابيا، واذكرا الله كثيرا، تصلح حالكما.

وعندما تطلب الزوجة نفقتها فاعلم أيها الرجل، أنك ملزم بذلك، هي سيدة البيت، وأنت الذي تشقى لراحتها ومتطلباتها العادلة التي في مقدورك، اقرأ قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰأَدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۚ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۚ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧-١١٩]. هذا النص القرآني

خِطَابُ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - لِآدَمَ وَحَوَاءَ، حَذَّرَهُمَا اللَّهُ فِيهِ مِنْ غَوَايَةِ إِبْلِيسَ وَمَا سَوْفَ يَكُونُ لهُمَا إِنْ أَطَاعَاهُ ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾؛ إِذِ الْخِطَابُ لِلْاِثْنَيْنِ، ثُمَّ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّقَاءَ سَيَكُونُ لِلرَّجُلِ ﴿فَتَشَقَّى﴾. وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ اسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَسْئُولِيَّةَ الرَّجُلِ نَحْوَ نَفَقَةِ الْمَرْأَةِ (الْمَأْكَلِ، الْمَلْبَسِ، الْمَشْرَبِ، الْمَسْكَنِ).

ومهما صار من فتورٍ في العلاقة الزوجية، فالقرآن خيرٌ مُسْتَشَارٍ، وفيه خيرٌ علاج.

أَخِي، أَخْتَاهُ، اقْرَأْ آيَتِي النِّشْوَزَ، اقْرَأْهُمَا مَعْشَرَ الزَّوْجَيْنِ بِتَدَبُّرٍ وَتَأَمُّلٍ وَرُويَّةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَ عِدَّةِ آيَاتٍ: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

نلاحظ أن النُّشُوزَ في هاتين الآيتين ورد مختلفاً؛
ففي الآية الأولى يكون النُّشُوز من المرأة، وفي الآية
الثانية يكون النُّشُوز من الرجل.

والنُّشُوزُ في معاجم اللغة هو: ارتفاع يكون في
الأرض، قال الزمخشري في تفسيره: «نُشُوزُ المرأة:
أن تعصي زوجها، ولا تطمئن إليه، وأصله الانزعاج،
ونُشُوزُ الرجل: أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه
ونفقتة والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن
يؤذيها بسبٍ أو ضرب، والإعراض: أن يُعرض عنها بأن
يُقلَّ محادثتها ومؤانستها»^(١).

وجاء الحكم مختلفاً بين النُّشُوزين؛ فحين تَبَدُّو
للرجل وتظهر له علامات الجفوة من امرأته وإشارات
النُّشُوز، فعليه المبادرة باتخاذ خطوات العلاج؛ يعظُّها
أولاً والوعظ يكون برفقٍ ولينٍ وتؤدَّة ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَاهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾
[آل عمران: ١٥٩].

(١) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري، (١/٥٧١).

فإن استجابت وتراجعت فذاك خير، وإن زاد بُعدها، وتعاضلَ نفورها، فليهجرها في المضجع، ونصَّ الحقُّ - سبحانه - بأن يكون الهجر في المضجع؛ أي في فراش النوم، وذاك أدعى للتأديب والتقارب، وإن أبت وتعدَّرت التوافق فله ضربها برفق؛ بورقة أو مسواكٍ كما قاله بعض المفسرين، وستعرف المرأة من تلك الخطوات كيف ترفَّق زوجها وتلطَّف في معاملة قسوتها ونشوزها، فالرجل له القوامة والإمارة حسب النص القرآني ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. وكثيرٌ من النساء بهذا الدواء الربَّاني، صلَّح حالتهنَّ مع أزواجهنَّ، وتذهب غمامة الكدرِ بينهم.

أمَّا إذا كان الخوفُ من نشوز الرجل نحو امرأته فالحكمُ مُختلف؛ فليس للمرأة أن تُبادر بمعاقبة زوجها، وإنما عليها المُسارعة لترضيته ومُلاطفته؛ فالرجل هو الراعي والمسؤول عن توفير نفقتها وحمايتها والذبُّ عنها، وقرار الفراق بيده فكيف تعاقبه؟

إنه إذا استهانت ربة الأسرة برئيسها وعزوتها ضاع البيت، ولم تعد ثمة أسرة متماسكة. ثم إن طبيعة الرجل وتكوينه يختلف عن المرأة؛ فهو الصبور، وهي الأرق، هو الأخشن، وهي الأنعم، هو الأهدأ إثارة، وهي الأسرع عاطفة، نشوز الرجل ثقيل قليل، ونشوز المرأة سريع كثير، غضب الرجل بطيء، وغضب المرأة سريع. ولهذا لا يكون نشوز الرجل إلا لسبب قاهر وقليل، في حين يكثر النشوز من جانب المرأة لأقل شيء تتوهمه سبباً، فطبيعة تكوينها تختلف عن الرجل.

ولهذا جاء التوجيه الرباني عند الخوف من وقوع النشوز الذكوري بالرفق والصلح والمصالحة والمقاربة! ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقد استنبط الشيخ ابن عثيمين عدداً من الفوائد في آيتي النشوز؛ إذ قال من فوائد الآية الأولى: * «أن للزوج السلطة على زوجته تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ﴾ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

* ومن الفوائد: التدرج في التأديب، التدرج:

﴿فَعَظُّوهُنَّ﴾ ثم ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ﴾ ثم ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾.

* أنه إذا أمكن التأديب بالخطاب الديني الشرعي،

فإنه لا يرجع إلى التأديب بالفعل المحسوس؛ لأن

اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الْهَجْرَ وَالضَّرْبَ بَعْدَ الْمَوْعِظَةِ،

بدأ بالموعظة التي هي تليين القلب بالشرع، فإذا

لم يمكن فبالعقوبة.

* الإشارة إلى أن فراش الزوج والزوجة واحد. من

قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾. فدل ذلك على

أن هجر الإنسان لفراش زوجته لا يكون إلا عند

النشوز.

* تحريم نشوز المرأة على زوجها.

* المكافأة بالمثل، أنه عند الطاعة لا يجوز للإنسان

أن يبغى عليها سبيلاً.

* التفاضل عما مضى؛ لأنه يشمل ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيَّ﴾

سبيلاً ﴿يشمل الماضي والمستقبل﴾.

* الإشارة إلى أن الذي له العلو المطلق هو الله،

فلا تتعال على غيرك. من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَثِيرًا﴾.

ومما أورده الشيخ من فوائد في الآية الثانية قوله: * «عناية الله عَزَّجَلَّ بما يكون بين الزوجين؛ وَجْهُهُ أَنْ الله ذكر هنا نُشُوزَ الزوج، وفي أول السورة نشوز الزوجة؛ مما يدل على عناية الله تعالى بما يكون بين الزوجين؛ لأن الزوجين هما الرابطة، الرابطة التي تربط بين الأولاد، وتربط أيضًا بين الصهر وصهره، وهي أحد النوعين في الربط، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

* أن من الأزواج من ينشز عن الزوجة، يترفع عليها، يعرض عنها، لا يجلس إليها ولا يستأنس بها ويكلمها بأنفه، لقوله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾. * العمل بالقرائن، من أين يؤخذ؟ من قوله: ﴿خَافَتْ﴾، ولم يقل: رأت نشوزًا، بل: ﴿خَافَتْ﴾، ومن المعلوم أنها لم تخف من النشوز والإعراض إلا بوجود القرائن،

والعمل بالقرائن ثابت بالقرآن والسنة، بماذا عمل شاهد يوسف؟ بالقرينة، ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتُ﴾ [يوسف: ٢٦]، ﴿وَإِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتُ﴾ [يوسف: ٢٧]، وعمل سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قضائه بين المرأتين بالقرينة حين قال: «ائتوني بالسكين أشقه بينكما»، فقالت الصغرى: لا. يرحمك الله، هو ابنها. فقضى به للصغرى^(١)، والأمثلة على هذا كثيرة.

* ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجوز أن يصطلح الزوجان فيما بينهما على ما شاءا، لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

* ويتفرع على هذه الفائدة: اطمئنان الزوج فيما لو صالحها على إسقاط حقها أو بعضه، فليطمئن؛ لأن الحق لها، فإذا اصطلحا على أن تبقى عنده ويسقط بعض الحق فلا حرج عليه، والآية هنا فيها ﴿أَنْ يُصْلِحَا﴾ وقراءة أخرى (أَنْ يُصَالِحَا)، وأصل (يُصَالِحَا) يتصالحا.

(١) أخرجه مسلم (٣/١٣٤٤ رقم ١٧٢٠).

* هذه القاعدة العظيمة من الرب الذي هو على كل شيء قدير، وهي ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قد يظن بعض الناس أنه إذا غض من نفسه، وتنازل عن الحق أن ذلك هضم لحقه، وأن العاقبة غير حميدة، لكن الله عزَّجَل الذي بيده ملكوت السماوات والأرض يقول: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

* الإشارة إلى أن الصلح ثقيل على النفوس، لكن المؤمن يهون عليه الثقل إذا كان يؤمن بأن الصلح خير، يؤخذ من قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾، بطبيعة الإنسان أنه لن يتنازل عما يريد، ولن يتغاضى عن حقه، هذا طبيعة الإنسان، لكن المصالحة التي هي خير لا بد من ثمن يبذل، وهو الضغط على النفس التي أحضرت الشح حتى توافق على الصلح^(١).

هذا وبعدُ ففي كتاب الله كلُّ شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، تفسير سورة النساء، آية: ١٢٨.

لقد أرشد القرآن إلى أسس الوثام وتمتين العلاقة بين الزوجين، وعالج الجفوة بينهما، ونبه إلى خصوصيتها وسريتها، فمن الخير للزوجين أن لا يعلم بخلافهما أحد، وأن لا تخرج الجفوة بينهما خارج غرفة النوم؛ لأن ذلك أدعى للصالح وأقرب للاتفاق، وقد ألمحت الآية الكريمة في نُشُوز المرأة لهذه الخصوصية؛ يعظها، والوعظ المنفرد تركيزه أكثر وتأثيره أبلغ، فلا طرف خارجي يُشتت الذهن ويُخرج الموعوظ، وإن تمنعت ولم تقبل الوعظ فيهجرها، والهجر في المضجع وتلك عقوبة سرية خاصة جداً، ثم الضرب الناعم، ضرب غير مبرح، عن معاوية بن حيدة القشيري، قيلَ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما حقُّ المرأةِ على الرجلِ؟ قال: «يُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمَ، وَيَكْسُوها إِذَا اكْتَسَى، وَلَا يَضْرِبُ الْوَجْهَ وَلَا يَقْبَحُ إِلَّا ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرَحٍ وَلَا يَهْجُرُهَا إِلَّا فِي الْمَبِيتِ»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١٧/٣٢ رقم ٢٠٠١٣)، والحاكم (٢/٢٠٤ رقم ٢٧٦٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٥/٢ رقم ١٩٢٩).

وعند نُشوز الرجل ورد الصلح، لكن بتحديد (بينهما)، وفي قراءة (أن يصالحا بينهما)، فلا يتدخل طرفٌ خارجي لا أمٌّ ولا أبٌّ ولا ابنٌ ولا ابنة، ولا غيرهم. إن الله - سبحانه - وهو الخالق، يعلم بحالة النفوس وضعفها وحرَجها مع الغير؛ ولهذا ورد التوجيه بالمصالحة، ثم تأكيدٌ وتعميمٌ خيرية الصلح. رزقنا الله نور البصيرة.

ثم إن الزواج ارتباطٌ بين أُسرتين مُتباعدين، فقد حَرَّمَ الله ومنَعَ زواج المحارم بعضُهم من بعض، ومن هنا جاء الزواج بروابط جديدة بين أُسرتين مُختلفتين، ونشأت العلاقة الزوجية في مرحلة الفتوة والشباب، ولهذه المرحلة العُمريَّة تبعاتها من العجلة ونسيان مآلات الزواج، فليس الزواج تماسُّ وقضاءً وطَر، بل هو بناءٌ بيتٍ جديد، وامتدادُ حياة بيتين سابقين، وتربية أطفال، وإعدادُ أُسرٍ جديدة. وفي القرآن الكريم تنبيه هذه العلاقة الزوجية التي أراد الله بها استمرارَ عِمارة الأرض حتى تقوم الساعة، اقرأ قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

[النساء: ١].

أَنْتَ وَأَنْتِ، وَأَنَا وَهُوَ، نحن الذين بَثَّهمُ اللهُ في أرضه، وأمر كلا الزوجين بتقوى الله. مما قاله الشيخ ابن سعدي في تفسيره: «قرن الأمر بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به»^(١).

ويقول الشيخ كذلك: «وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عمومًا، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها. فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم. وفي قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج

(١) تيسير الكريم الرحمن إلى تفسير كلام المنان، (ص ١٦٣).

والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب علاقة»^(١).

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين: «﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ولم يقل: زوجها؛ لأن اللغة الفصحى أن الزوج يطلق على الرجل والمرأة»^(٢).

وورد في تفسير ابن عطية: «قال ابن عباس ومُجاهدٌ والسُّدِّيُّ وقتادة: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ وَحَشًا فِي الْجَنَّةِ وَحَدَهُ، ثُمَّ نَامَ فَانْتَزَعَ اللَّهُ أَحَدَ أَضْلَاعِهِ الْقُصِيرَى مِنْ شِمَالِهِ، وَقِيلَ: مِنْ يَمِينِهِ فَخَلَقَ مِنْهُ حَوَاءَ، وَيُعْضَدُ هَذَا الْقَوْلَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرَتْهَا، وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا»^(٣).

(١) السابق، (ص ١٦٣).

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، تفسير سورة النساء، آية: ١.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٩٠/٢) رقم ١٤٦٨، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير

الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٤/٢).

وثمة أمر آخر نبّه القرآن إليه، وهو السحر والسحرة؛
 فالسحرة أثرهم في التفريق بين الزوجين وتباعدهما.
 قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوْا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ
 سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ
 عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هُرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا
 إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
 وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا
 يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
 [البقرة: ١٠٢].

وفي القرآن العلاج والشفاء من ذلك قراءة
 المعوذات، وتلاوة الأوراد، والصدقة، ويذكر الله في
 كتابه بعمل يزيد في الإصلاح بين الزوجين، اقرأ
 قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا
 لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
 وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فبادرًا لعمل الخير،
 تصلح أموركم؛ تصدقًا، أسرعًا وأحسنًا القول والمعاملة

لأقرباء كل منكما، صلا أرحامكما الأقربين والأبعدين.
 «عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
 «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ اشْتَقَقْتُ
 اسْمَهَا مِنْ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَهَا
 قَطَعْتُه»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَطِيعَ اللَّهُ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ
 صَلَةِ الرَّحِمِ، وَمَا مِنْ عَمَلٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ أَعْجَلَ عُقُوبَةً
 مِنَ الْبَغْيِ وَالْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ»^(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ
 الصَّدَقَةَ وَصَلَةَ الرَّحِمِ يَزِيدُ اللَّهُ بِهِمَا فِي الْعُمْرِ،
 وَيُدْفَعُ بِهِمَا مِيتَةَ السُّوءِ، وَيُدْفَعُ اللَّهُ بِهِمَا الْمَكْرُوهَ
 وَالْمَحْذُورَ»^(٣).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ

(١) أخرجه أبو داود، (١٦٩٤)، وصححه الألباني، صحيح أبي داود، (١٦٩٤).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، (٣٥/١٠).

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد.

الكاشح»^(١). قيل: الكاشحُ العدوُّ، فَثَبَّتَ بِدَلَالَةِ الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ وَجُوبُ صَلَةِ الرَّحِمِ وَاسْتِحْقَاقُ الثَّوَابِ بِهَا»^(٢).

أَكْثَرَ مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّذَلُّلِ لِلَّهِ؛ رَغْبَةً فِي خَيْرِهِ، وَحَذَرًا
مِنْ غَضَبِهِ -سَبْحَانَهُ- وَاسْتَحْضَارِ الْعِظَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ
وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، تَصْلَحُ
أُمُورُكُمْ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.



(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٧٩) والحميدي (٢٣٠)، وابن خزيمة (٢٣٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١١٠).

(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، (١٧٢/٩).

قُدُواتنا والابتلاءات

القرآنُ كرامةٌ من الله ونعمة، ومائدةٌ سَمَويَّةٌ ننهلُ من زادها، ونلجأُ إليها نستهدي ونتعلم.

احرص أن تعرض نفسك على تلك المائدة كُلِّ حينٍ، وستجد الغذاء، وستلقى الهداية، وسترى الرِّشاد، وستقرأ قصص القُدوات الأخيار، رُسل الله عَلَيْهِمُ السَّلام.

عندما تتعرض لحالة ابتلاءٍ بفقدٍ حبيب، أو خسارةٍ مالٍ، أو أيِّ عَرَضٍ دُنَيوي فاقراً القرآن، واعرض نفسك عليه؛ فكلما قرأته عرفت أن ابتلاءات الله عامة؛ ابتلي أنبياء الله ورسله! فالخلق والوجود ليس عبثاً وترفاً، إنما هو ابتلاءٌ واختبار ورجعة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

اقرأ القرآن، فكلما قرأته، وفحصت نفسك تعلّمت
دروسًا في الصبر والتحمل!

ما من فردٍ إلا ويتعرّض لحالات حُزْنٍ وألمٍ، فهل
نستسلمُ للأحزان؟

كلما قرأت القرآن علّمت ما أصاب قُدواتنا من
ابتلاءات؛ فنبِيُّ الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أُبْتُلِيَ بعناد قومه؛ إذ
لبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسِينَ عامًا يدعوهم ويتربّاهم
التَّعَقُّلَ والإيمانَ بالله، فيسخرّون منه، ويصبر ﴿وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

رجالٌ عظماء، وسنواتٌ طوالٌ يصبرُ فيها نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ
ويتحملُ عناء الدعوة إلى الله، وتزدادُ معاناةُ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ
بكفر أقرب الناس إليه؛ بكفر ابنه وزوجه، فيصبرُ
ويتحملُ ويستمرُّ في الدعوة إلى الله، وتكون له العاقبة
الحسنة أن أغرق الله الكفرة، وصار امتدادُ البشر منه
عَلَيْهِ السَّلَامُ. يقول الشيخ ابن سعدي: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾
[الصافات: ٧٧] أغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته

متسلسلين، فجميع الناس من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعل له ثناءً حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين؛ وذلك لأنه مُحسِّنٌ في عبادة الخالق، مُحسِّنٌ إلى الخلق، وهذه سنَّته تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم»^(١).

أين نحن من صبر نوح وجُهدِه؟! قرونٌ وهو يدعو قومه، ويصبرُ على أذاهم. لنفحص ذواتنا، كم بذلنا من الوقت لخدمة ديننا؟ وكيف رقابتنا لأسرنا؟

ابْتُلِيَ إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ ببلاءٍ يَعْجُزُ عنه ملايين البشر، بلاءٌ وصفه الله سبحانه بالبلاء الواضح الجلي، ابتلي برؤيا ذبح ابنه، فعزم على التنفيذ وصبر ونال الفوز ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَلَدَيْنَاهُ أَن يَتَأَبَّرْهُمَا ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبُتْلُوهُنَّ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٧٠٥).

يقول ابن سعدي: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي امتحن به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وده، ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حباً لله، فلما قدّم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه؛ فلهذا قال: ﴿هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾^(١).

ويتنوع ابتلاء إبراهيم ويصبر، وتكون له العاقبة الحسنة، يُضْرَمُونَ النار ويقذفون به فيها، وأنى لهم ذلك ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٨) ﴿قُلْنَا نَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٦) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

(١) المصدر السابق، (ص ٧٠٦).

يقول الشيخ الشعراوي: «في هذا الموقف تظهر طلاقة قُدرة الله في الكون، فإن الله - سبحانه - خَلَقَ لِلْمُسَبِّبَاتِ أسبابًا، ثم قال للأسباب: أَنْتِ لَسْتِ فاعلةٌ بِذَاتِكَ، ولكن بإرادتي وقُدرتي، فإذا أَرَدْتُكِ إِلَّا تفعلي أَبْطَلْتُ عَمَلَكِ، وإذا كُنْتَ لَا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به. فنبِيُّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من المُمْكِنِ أَلَّا يُمَكِّنَ خِصْمَهُ من القبض عليه، أو يُنْزِلَ مطرًا يُطْفِئُ ما أوقدوه من نار، لكن ليست نِكاية القوم في هذا، فلو أَفَلَّتْ إبراهيم من قبضَتِهِم أو نزل المطرُ فأطفأ النار لقالوا: لو كُنَّا تَمَكَّنَّا مِنْهُ لَفَعَلْنَا بِهِ كَذَا وَكَذَا، ولو لم ينزل المطر لفعَلْنَا بِهِ كَذَا وَكَذَا. وشاء الله أَنْ يَكِيدَ لَهُمْ، وَأَنْ يَظْهَرَ لَهُمْ طَلَاقةُ القُدرة الإلهية، فَيُمَكِّنَهُمْ مِنْ إبراهيم حَتَّى يُلْقَوْهُ فِي النَّارِ فِعْلًا، ثم يَأْتِي الأَمْرُ الأَعْلَى مِنَ الخَالِقِ - سبحانه - للنار أَنْ تَتَعَطَّلَ فِيهَا خَاصِيَةُ الإِحْرَاقِ ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/٩٠٢١).

ويتعاقب رسلُ الله وأنبياءه في الدعوة إلى الله،
وتَحْمِلُ جِهَالَةَ أَقْوَامِهِمْ ويفوزون، ويخسرُ المعاندون
المتكبرون العُصاة ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ
كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾
[يوسف: ١١٠].

حين أحاط قومُ لوطٍ به، وجاؤوا إليه يهرعون لفعل
الفاحشة في ضيوفه؛ خِسَّةٌ ودناءةٌ وازدراءٌ بنبي الله
عَلَيْهِ السَّلَامُ وامتهاناً لكرامته، اشتدَّ به الكرب، ثم كان
الفرج والإهلاك للمجرمين ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ
قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَوْىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ
شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ
رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧-٨٣].

لقد وصف القرآن الكريم أولئك القوم بفاقدي
الرُّشد ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، كما وصفهم بالمفسدين
﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ووسمهم
بالفسق ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ أَسْمَاءٍ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وكان لهم عذاب الاستئصال العنيف، وذكر
- سبحانه - أنه أبقى خبرهم وعقابه لهم آيةً واضحةً،
فليعتبر العقلاء ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
[العنكبوت: ٢٥].

وَكُلُّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ قَوْمٍ لُوطٍ فَقَدْ؛ فَقَدَ الرُّشْدَ،
وظلم وطفى، فكانت نهايته الهلاك، يقول تعالى:
﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، حتى مَنْ رَضِيَ فعلهم. تلك
زوجة لُوط غلبتها الشقاوة، فكفرت ورضيت أعمال
قومها القذرة، فأصابها العذاب، وهلكت مع الهالكين
﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧].

ونسمع في هذا العصر تسمياتٍ جديدةٍ لذاك الفعل
القذر (مثليين) لتحسين عملهم، وتُقَرُّ بعض الدُّول

تشريعاتٍ لسلوكهم المنحرف. وفي القرآن الوصف الحقيقي والتسمية الفعلية لهم؛ فهم أهل السُّوء والفُسق والخبائث ﴿وَلَوْ طَآءَ أَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

ارجع للقرآن، واسترشد به في منهجك السلوكي، واستتر به طريق حياتك.

ويختتم الحق - سبحانه - النبوات ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي سيرته دروسٌ وعبرٌ، فأين نحن من قراءتها والتعلُّم منها؟!

إن في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي صبره وتحمله، المنهج الحق، المنهج الواجب تأمله، ودراسته وتدريسه!

ابتلي صلى الله عليه وسلم باليتم، بفقد الأب، ثم فقد الأم في طفولته، وابتلي بعناد قومه، وحسد ثلَّةٍ من أعيانهم له، وبعداوة أقرب الناس إليه صلى الله عليه وسلم؛ عمه أبو لهب.

وابتلي بتمنُّعِ أحبِّ الناسِ إليه عمُّه أبو طالب؛ أبا الهداية وامتنع، فصبرَ رسولُ الله ﷺ وما يئس، ظلَّ يلحُّ ويترجى هدايةَ عمِّه، ويأبى حبيبه الغالي أبو طالب ويموتُ على الشرك!

ويستمرُّ ﷺ في الدعوة ثلاثَ عشرةَ سنةً بمكة، يتحمَّلُ أذى قومه وسفاهتهم، ويبليُّ الجهدُ منه مبلغه، فينزلُ عليه مَلَكُ الجبالِ فيُسلمُ عليه ﷺ، ويستأذنه بأن يطبق (الأخشبين) على أهل مكة، ولكنه -بأبي هو وأمي- يصبرُ عليهم وهم يكيدونه، ويترقَّقُ بهم وهم يؤذونه، ويقول كلمته الخالدة لَمَلِكِ الجبال: لا، اتركهم، لا، دعهم، لا، أمهلهم لعلَّ الله يُخرجَ من أصلابهم عبادًا لله!

ويصبر ﷺ، وتكون له العاقبة الحسنة فيهتدي كثيرون، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ ٢١ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

[النصر: ١-٣].

ويمضي التاريخ والابتلاءات ماضية، ويتكرر ما ورد في أول سورة العنكبوت ﴿الْم ۝١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

الْجَأُ للقرآن الكريم في يُسْرِكَ وَعُسْرِكَ، تجد فيه الأمر بالتوكل على الله، ومنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢].

إِذَا مَسَّكَ أَيُّ ضُرٍّ وَأَيُّ ابْتِلَاءٍ، فلا تحزن، فالحزنُ يجلبُ الحُزنَ، ولكن أَمْسِكْ بحبلِ القرآن، فهو مَوْصُولٌ بالسماء، ومن تعلق به نجا. عن جبير بن مطعم: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرْفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرْفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلِكُوا، وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

رَبَّاهُ، لك الحمد.

(١) أخرجه البزار (٣٤٢١)، والطبراني (١٢٦/٢)، (١٥٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٤)..

عجبي كيف الغفلة عن حبلِ النجاة المتّصل
بالسماء! تعلّق به، وعُدّ إليه كل حين ﴿وَكُفِيَ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

واعلم أن الابتلاء مثلما يكون بالألم والشر، يكون
بالفرح والخير، فلا تغترّ بعطاء الله واشكره. ﴿وَنَبِّلُوكُمُ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

إنه القرآن، تدبّره، واعرض نفسك عليه كلّ حين؛
كي تصقل نفسك، وتتجدد حياتك.

اللهم اجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه.



القول والعمل

تسمعُ قولَ بعض المُتحدِّثين فيُعجِبُكَ، وترى عمَلَهُ
فيسُوؤُوكَ، وشتَّان ما بين القول والعمل! فكيف أنت بين
قولك وعملك؟ احذِرْ أن تكون ذاك الشخص الذي يقول
ولا يفعل، فالقرآن ينهاك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ
مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾
[الصف: ٢، ٣].

اكتشف ذاتك بجهاز الفحص القرآني، فالله - سبحانه -
يعلم حالتك نطقت أو لم تنطق، جهرت بالقول أو لم
تجهر ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

تمضي حياتك وأنت غافلٌ تتحدث بحُلُو القول،
وحين العمل تحيدُ عما وعظت به ودعوت إليه، لكن

حين تقرأ القرآن، تتنبّه لزللك وخطبك، وتتذكر رقابة الله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وسوسة نفسك معلومة لله. لا مفر ولا مهرب، فالحذر الحذر، ليكن باطنك كظاهرك، وليكن قولك مرآة لعملك ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِثْلَ نُفُوسٍ بَهِيمَةٍ فَمَا تُدْرِكُهُ﴾ [البقرة: ١٧] وَإِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلِفَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٦-١٨].

تذكر أن معك رقيباً عتيداً، أي ملازمٌ لك مراقبٌ حاضرٌ لا يفوته شيء.

اجلس على انفراد وفي خلوة مع نفسك، وافتح المصحف، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦].

افحص نفسك في ضوء هذه الآيات، وحاسب نفسك
قبل ذاك اليوم العظيم؛ فهل أنت تطفّف في تعاملك مع
الآخرين؟

هل يغلبك حبُّ الدنيا، فتختلس من وقت عملك
وأنت لا تشعر؟

هل أنت في أداءِ الحقوقِ تتكاسلُ وتتراخي؟
هل أنت سمحٌ في إمضاء بيعك فلا تبخس المشتري،
ولا تخفي عليه عيباً خفي في بضاعتك؟

هل وهل، ثم هل وهل؟ تساؤلات كثيرة في أسلوب
المحاسبة والفحص القرآني للذات في حياتها العملية.
إن القرآن الكريم بين أيدينا نتلوه ونغفل عن تطبيق
أحكامه! فهذه السورة التي مفتحتها ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّينَ﴾ تُحذّرُ
من اختلاس القليل، فكيف بالكثير؟

تداركُ نفسك واحذر أن تكون ذاك الذي يجمع
السوّاتين (حشفاً وسوءَ كيل؟) (١).

(١) انظر: مجمع الأمثال، الميداني، (٢٠٧/١).

احذرِ السوأة القليلة القليلة، سوف تجدها في
ميزان حسناتك، في ذاك اليوم العظيم ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ
خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وزن حبة الخردل محفوظٌ وسيكون أمامك حاضرًا،
فهل تنبّهت لذاك الميزان الذي ينتظرك؟

تذكر وزن الخردلة وأنت في متجرك أو في مكتبك
أو في محاضرتك، أو في كل حالات أدائك لحقوق
الآخرين. إنه القرآن شاهدٌ علينا في دنيانا، فهل نتنبّه
ونفحص ذواتنا، ونراجع أداء أعمالنا!

إن تذكر هذه الرقابة الربانية والوعيد الإلهي
للمطففين (بالويل)، وللكذابين الذين يقولون ولا يفعلون
(بالويل) أيضًا ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]. إنه وعيدٌ
حقيقي، فالحذر الحذر.

تذكر رقابة الله لك: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

إنها رقابةٌ شاملةٌ كلَّ شيءٍ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾

[الأحزاب: ٥٢].

(الويل) الموعود به ذاك المطفف، ذاك الكذاب الأثيم الذي يقول ولا يفعل، قال عنه ابن عاشور في تفسيره: «﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةٌ دُعَاءٌ بِسُوءِ الْحَالِ، وَهِيَ فِي الْقُرْآنِ وَعِيدٌ بِالْعِقَابِ وَتَقْرِيعٌ»^(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين: ﴿وَيْلٌ﴾ تَكَرَّرَتْ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، وَهِيَ عَلَى الْأَصَحِّ كَلِمَةٌ وَعِيدٌ يَتَوَعَّدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ أَوْ ارْتَكَبَ نَهْيَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَقِيدِ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

فهنا يقول عَزَّجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّينَ﴾ [المطففين: ١]، فَمَنْ هَؤُلَاءِ الْمُطَفِّفُونَ؟

هَؤُلَاءِ الْمُطَفِّفُونَ فَسَّرْتَهُمُ الْآيَاتِ الَّتِي بَعْدَهَا، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ^(٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

[المطففين: ٢، ٣].

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، (١٨٩/٣٠).

﴿إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: اشتروا منهم ما يُكَال،
استوفوا منهم الحقَّ كاملاً دون نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ يعني: إذا كالوا لهم؛
بأن كانوا هم الذين باعوا الطعام كيلاً، فإنهم إذا
كالوا للناس أو باعوا عليهم شيئاً وزناً إذا وزنوا للناس
نقصوا؛ ﴿يُخْسِرُونَ﴾، فهؤلاء -والعياذ بالله- يستوفون
حقَّهم كاملاً وينقصون حقَّ غيرهم، فجمعوا بين
الأمرين؛ بين الشُّحِّ والبخل؛ الشُّحُّ في طلب حقِّهم
كاملاً دون مراعاةٍ أو مسامحة، والبخل بمنع ما يجب
عليهم من إتمام الكيل والوزن.

وهذا المثال الذي ذكره الله عَزَّجَلَّ في الكيل والوزن
هو في الحقيقة مثال، فيُقاس عليه كلُّ ما أشبه، كلُّ مَنْ
طلب حقَّه كاملاً ممَّن هو عليه ومنع الحقَّ الذي عليه
فإنه داخلٌ في الآية الكريمة؛ فمثلاً الزوج يريد من
زوجته أن تعطيه حقَّه كاملاً، ولا تتهاون في شيءٍ من
حقِّه، لكنَّه عند أداء حقِّها يتهاون ولا يعطيها الذي لها،

وما أكثر ما تَشَكَّى النساءُ من هذا الطراز من الأزواج، والعياذُ بالله؛ حيث إنَّ كثيرًا من النساء يريد منها الزوج أن تقوم بحقه كاملاً، لكنَّه هو لا يعطيها حقَّها كاملاً، ربما ينقص أكثر حقَّها من النفقة والعِشرة بالمعروف وغير ذلك.

والغريب أنَّ هذا يقع كثيراً من الناس الذين ظاهرهم الالتزام، حتى إنَّ بعض النساء تقول: أنا ما اخترتُ قبول هذا الزوج إلا لِمَا له من السُّمعة الحسنة والالتزام. فإذا به ينقلب ويكون أسوأ حالاً بالنسبة لزوجته من أهل الفسق، فلا أدري عن هؤلاء الذين ظاهرهم الالتزام، هل يظنُّون أنَّ الالتزام أن يقوم الإنسان بعبادة الله فقط ويُضِيع حقوقَ الناس؟! إنَّ ظُلمَ الناسِ أشدُّ من ظُلمِ الإنسان نفسه في حقِّ الله؛ لأنَّ ظُلمَ الإنسان نفسه في حقِّ الله تحت المشيئة إذا كان دون الشرك؛ إن شاء الله غفر له، وإن شاء عاقبه عليه، لكن حقَّ آدميين ليس داخلاً تحت المشيئة،

لا بدَّ أن يُوفَى، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١): «مَنْ تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟». قالوا: مَنْ لا درهم عنده ولا دينار، أو قالوا: ولا متاع. قال: «لَا، الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ - كَثِيرَةٌ - فَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَشَتَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ، وَإِلَّا أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». فنصيحتي لهؤلاء الإخوة الذين يفرطون في حقِّ أزواجهم سواءً كانوا من الملتزمين أو من غيرهم أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ عَزَّجَلْ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى بذلك في أكبر مجمعٍ شهدَه العالم الإسلامي في حياة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في يوم عرفة في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، قال^(٢): «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»، فَأَمَرْنَا أَنْ نَتَّقِي

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١ / ٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) من حديث جابر بن عبد الله.

الله تعالى في النساء، وقال^(١): «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ». أي: بمنزلة الأسرى؛ لأنَّ الأسير إن شاء فكَّه الذي أسره، وإن شاء أبقاه، المرأة عند زوجها كذلك إن شاء طلقها وإن شاء أبقاها، فهي بمنزلة الأسير عنده، فليتَّقِ الله فيها.

كذلك أيضًا نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه على التمام لكنَّه مفرطٌ في حقِّهم، فيريد من أولاده أن يبرُّوه ويقوموا بحقه؛ أن يبرُّوه في المال وفي البدن، وفي كلِّ شيء يكون به البر، لكنَّه هو مضيعٌ لهؤلاء الأولاد، غيرُ قائمٍ بما يجب عليه نحوهم، نقول: هذا مطفف. كما نقول في المسألة الأولى -في مسألة الزوج مع زوجته-: إنَّه إذا أراد منها أن تقوم بحقه كاملاً وهو يبخلُ حقَّها، نقول: إنَّه مطفف. هذا الأب الذي أراد من أولاده أن يبرُّوه تمام البر وهو مقصِّر في حقِّهم نقول: إنك مطفف. ونقول له: تذكر قولَ الله

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٩٥) من حديث عم أبي حرة الرقاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ أَلَيْسَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٢] (١).

أخرج البخاري، ومسلم واللفظ له، بسنديهما من حديث ابن عباس قال: «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بموعظة، فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]...» (٢). الحديث.

وفي آية أخرى يأمر سبحانه بوفاء الكيل والوزن ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

ولهذا يتناقل المؤرخون سماع عمر بن الخطاب حديث الفتاة مع أمها بإعجاب وإطراء؛ إذ قالوا: «بينما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يعسُّ في بعض الليالي، وإذا

(١) تفسير ابن عثيمين، سورة المطففين، الآية: ١-٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم، (٥٨/٢٨٦٠).

به يسمع امرأة تقول لابنة لها: قومي إلى ذاك اللبن فامذقيه بالماء -أي اخلطيه بالماء- فقالت البنت: يا أمّاه أو ما قد علمت بما كان من عزمَةِ أمير المؤمنين؟

قالت الأمُّ: وما كان من عزمته يا بنيّة؟

قالت البنت: إنّهُ أمرَ مناديه فتادى: لا يُشَابُ اللبنُ بالماء.

فقالت الأمُّ: أي بنيّة قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضعٍ لا يراك فيه عمرٌ ولا منادي عمر.

وسمع عمر هذه المحاورة بين الأم وابنتها، فقالت البنت: يا أمّاه إن كان عمر لا يرانا ولا يعلم، فإله عمر يرانا ويعلم، والله ما كنت لأطيعه في الملاء وأعصيه في الخلاء.

تستشعر البنت رقابة الله، وتمتنع من الغش والتطفيف، ويسمع عمر رَضَوَاللَّهِ عَنْهُ هذا الحوار، ويسرّه

جواب الفتاة، ووقعت مقالاتها منه موقعًا عظيمًا، فقال:
يا أسلم -خادمه المرافق له- عَلِّمَ البابَ، واعرف
الموضع، ثم مضى في عَسَّه، فلما أصبح قال: يا أسلم،
امضِ إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها،
وهل لهما من بعل؟ قال أسلم: فأتيت الموضع، فنظرتُ
فإذا الجارية من بني هلال، أَيْمَ لا بعلَ لها، وإذا تيكَ
أُمُّها، ليس لها بعل، فأتيت عمر وأخبرته، فدعا عمر
ولده عبد الله وعبد الرحمن وعاصمًا، وقال: هل فيكم
من يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟ لو كان بأييكم حركة
إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية،
فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة،
وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى
الجارية، فزوجها عاصمًا، فولدت له محمدًا وبنثًا هي
أُمُّ عاصم، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم
فولدت له عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعاصم بن
عمر بن الخطاب هو جد عمر بن عبد العزيز لأمه.

إن هذه القصة الخالدة، وذاك الموقف السويُّ
لتلك الفتاة نال الإعجاب، وأبقى ذكرها خالداً تتناقله
الأجيال، فكيف برضا الله، وهو الخير والنعمة!
فاحرص أن يكون فعلك معبراً عن قولك، وعاكساً
باطنك!



كُلَّمَا...

اقرأ القرآن كلما ضاق صدرك، وكلما شعرت بالهم
نعوذ بالله من الهموم، فقد جعله الله بشارَةً وطمأنينة
﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ
الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

مما ذكره الشيخ الشعراوي في تفسيره، قال: «إن
سيدنا جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عالماً بكنوز القرآن،
وبالنفوس البشرية، وما يعتريها من تقلبات تُعَكِّرُ عليها
صَفْوَ الحياة من خوفٍ أو قلقٍ أو همٍّ أو حزنٍ أو مكرٍ،
أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن،

فكان يقول في الخوف: «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فإنني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وعجبت لمن اغتمَّ -لأن الغمَّ انسداد القلب وبلبلة خاطر من شيء لا يعرف سببه- يقول: عجبت لمن اغتمَّ، ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فإنني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، ليس هذا فقط، بل: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وكأنها (وصفة) عامة لكل مؤمن، وليست خاصة بنبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَام، فقَوْلُ المؤمن الذي أصابه الغمُّ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أي: لا مفزع لي سواك، ولا ملجأ لي غيرك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] اعترافٌ بالذنب والتقصير، فاعلٌ ما وقعت فيه من ذنب، وما حدث من ظلمٍ لنفسِي هو سببُ هذا الغمِّ الذي أعانيه.

وعجبتُ لمن مُكر به، كيف لا يفرع إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا﴾ [غافر: ٤٥]. فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو الذي سيتولى الرد عليهم، ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها -صاحب الطموحات في الدنيا المتطلع إلى زخرفها- عجبتُ كيف لا يفرع إلى قول الله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٤٠]. فَإِنْ قَلَّتْهَا عَلَى نِعْمَتِكَ حُفِظَتْ وَنَمَتْ، وَإِنْ قَلَّتْهَا عَلَى نِعْمَةِ الْغَيْرِ أَعْطَاكَ اللَّهُ فَوْقَهَا»^(١).

وجاء هذا القول عن جعفر الصادق في كتاب عجائب القرآن لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، وذكر بعده قول سفيان بن عُيينة: «أن الله لما قال:

(١) تفسير الشعراوي: (١٤/٨٩١٤-٨٩١٥).

﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقد وَعَدَ كُلُّ مُؤْمِنٍ يَقُولُ:
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَنْ يُنَجِّيه
 مِنَ الْغَمِّ، ومعلومٌ بالضرورة أن الله لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ^(١).

وصدق الإمام جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففي القرآن
 الشفاء من كُلِّ هَمٍّ، والعلاج من كُلِّ غَمٍّ، قال تعالى:
 ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

كلما شعرت بالقلق والتوتر افتحِ المصحف، واقرأ
 برفقٍ وتؤدّة ما تيسّر لك، أو افتحِ جهاز التسجيل واستمع
 لقارئٍ ندي الصوت، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب من
 عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه سورة النساء، قال
 عبد الله: قلتُ: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحبُّ
 أن أسمعَه من غيري.

(١) عجائب القرآن، الفخر الرازي، ص ١٤٢.

قال: فقرأتُ عليه حتّى إذا انتهيتُ إلى قوله:
﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾
الآية، [النساء: ٤١] فرفعتُ رأسي فإذا عيناه تهملان^(١).

كلما رأيت فقيرًا أو مشروعا خيريًا فاحرص أن تجعل
لك فيه نصيبًا ولو بريال، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَالْكُظُمِينَ الْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[آل عمران: ١٣٤].

واعلم أن كل ما أنفقته من خير فالله يُخلفه، ﴿قُلْ
إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ
فَهُوَ يَخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

كلما ارتبطت بالله زاد يقينك وصبرك، وكلما
قرأت القرآن عرفت التربية الحقة، وأن الحياة الدنيا
ماهي إلا مرحلة وجيزة للامتحان والتمايز ﴿بَرَكَ الَّذِي
بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴿[الملك: ١-٢].

(١) أخرجه البخاري، (٤٥٨٢)، ومسلم، (٨٠٠).

تَأَمَّلْ وَتَدَبَّرْ هَذِهِ الْآيَةَ تَعْلَمُ أَنَّ وَجُودَكَ فِي الدُّنْيَا مُؤَقَّتٌ، فَبَعْدَ الْحَيَاةِ، مَوْتٌ وَبَعْثٌ.

قال مكي بن أبي طالب في تفسيره: لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ «أي: خلق الموت ليُمَيِّتَ الأحياء، وخلق الحياة ليحيي الموتى. وفعل ذلك ليختبركم في حياتكم وطول إقامتكم في الدنيا، أيُّكم أحسنُ عملًا فيجازيه على ذلك في الآخرة. وقد علم تعالى كُلَّ ما هم عاملون، وعلم الطائع والعاصي قبل خلقهم، لكن المجازاة إنما تقع بعد ظهور الأعمال، لا يُجَازَى أَحَدًا بَعْلَمَ اللهُ فِيهِ دُونَ ظُهُورِ عَمَلِهِ.

فالمعنى: ليختبر وقوع ذلك منكم على ما سبق في علمه وقضائه. وتقديره: من خيرٍ وشرٍ احتسابًا منكم.

قال قتادة: أَدَّلَ اللهُ ابْنَ آدَمَ بِالْمَوْتِ، وَجَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ حَيَاةٍ وَدَارَ فَنَاءٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ جَزَاءٍ وَبَقَاءٍ»^(١).

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب (١٩٢/٧).

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

كلّما رأيت الباطل يعلو، والمُجُون يفسحو، فعُدّ للقرآن تجد فيه التسلية والطمأنينة، فما هو إلا ابتلاء وتمايز ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

اصبر وثبت، واعلم أن الغيب من علم الله!

وبعد فقرة القرآن، خير زاد فكري، وخير حصن نلّوذك به، اعتصم به الصالحون الأخيار، فكانت لهم العاقبة الحسنة، ثبتنا الله بالقول الثابت ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].



كيف أنت والدنيا؟

حَبَّبَ اللَّهُ لِلنَّاسِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا ﴿زَيْنَ
لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ﴾ [آل عمران: ١٤].

افتح المصحف واعرضْ حالك والدنيا، وهل
خدعتك زينتها وأشغلتك عن آخرتك؟ تداركْ ذاتك مع
الدنيا وافحصها بالقرآن.

إنها الدنيا زينةٌ مرغوبةٌ، فمن لا يحب الأبناء
والأموال؟ الكلُّ يلهثُ ويجري، لكن الأعمال الصالحة
الصائبة الخالصة لوجه الله خيرٌ من تلك الزينة المؤقتة،

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

يتصارعُ البشرُ ويتقاتلون؛ طلباً لهذه الزينة، وما على الأرض زينةً وابتلاءً من الله؛ ليتمايزَ الناسُ أيُّهم أَعَفٌّ، وأيُّهم أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

أخي في الله، ما فُطِرَتْ عليه من حُبِّ الدنيا، يُثَبِّتُهُ القرآنُ ويؤكِّدُهُ، لكن إذا طلبتَ الدنيا والاستمتاعَ بما أعطاك الله منها، فاحذرَ الحذرَ من التماذي والغفلة عن الآخرة، فما الدنيا إلا ومضةٌ في حياتك الكبرى؛ فالدنيا رِحْلَةٌ وهناك الحياةُ الأبدية، نعيمٌ أو شقاء، ليست الدنيا إلا متاعٌ مؤقت، لا تغتر بما لديك ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الغور: ٢٠].

اعلم أن ما تناله في دنياك ليس إلا متاع، انظر لمن هم حولك من ذوي المال والجاه أين هم؟ ربما تخصم ورثتهم وتقاطعوا على ذاك المتاع الموروث، مُفَرِّقِ القرباب، وزارع الخصومات. ما رأينا ورثة فقراء تخصموا!

إِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ الْأَخْلَدُ وَالْأَبْقَى وَالْأَمْتَعُ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

اقرأ القرآن تجد الآيات المُنْبِهُة للغافلين عن آخرتهم، المُنْجِذِينَ للدنيا وزينتها. كُنْ واعياً راشداً، وانظر للقذوات من أمهات المؤمنين والصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

أمر الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَخِيرَ زَوْجَاتِهِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَالْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا، فَأَثَرْنَ الْآخِرَةَ ﴿يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]. تمضي الشهور

وبيوت أمهات المؤمنين لا يُوقدُ فيها نارُ الزاد، فعن عُرْوَة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت لعروة: «ابن أُختي، إِنَّ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ، ثُمَّ الْهَلَالِ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةَ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟» قالت: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَاجِحٌ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا»^(١).

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ جاءت بِكِسْرَةٍ خَبِزَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «مَا هَذِهِ الْكِسْرَةُ يَا فَاطِمَةُ؟» قالت: قُرْصُ خَبْزَتِهِ فَلَمْ تَطْبُ نَفْسِي حَتَّى أَتَيْتُكَ بِهِذِهِ الْكِسْرَةَ، فقال: «أَمَا إِنَّهُ أَوَّلَ طَعَامٍ دَخَلَ فَمِ ابْنِكَ مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^(٢).

وجاء عن عمران بن زيد المدني أنه قال، حدثني

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦/٦) رقم (٢٥٦٧).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١٦٦/٧) رقم (٢٥٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٥٨/١) رقم (٧٥٤)، وابن سعد في الطبقات (٤٠٠/١).

والدي قال: «دخلنا على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقلنا: سلامٌ عليك يا أمَّه! فقالت: وعليك السلام! ثم بكّت، فقلنا: ما بكاؤك يا أمَّه؟ قالت: بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمسَ لذلك دواءً يمرئه، فذكرتُ نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذاك الذي أبكاني، خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يومٍ من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الخبز، وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر، فذاك الذي أبكاني»^(١).

وقد تسأل: كيف نعيش؟ وهل نزهد في الدنيا وقد زينها الله؟!

اعملْ واسْتَزِقْ، لكن احذرِ المال الحرام، وإذا أقبلت الدنيا عليك بزینتها فقدّمْ لآخرتك خيراً لك؛ زكّ وتصدّق، وابذل في سبيل الله.

أكثر من الاستغفار والتوبة عش سعيداً، وتمتع في دنياك متاعاً حسناً، ليكن الاستغفار ديدنك، رطب

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤٠٦/١).

لسانك بذكر الله، وأكثر من الاستغفار، استغفر الله، استغفر الله، فقد وعدك الله -ووعده الله حق- بأن تمضي حياتك الدنيا بهيئاً مسروراً، وتنال فضل الله وخيره ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنَعَكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٢) إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴿[هود: ٣، ٤].

كيف أنت وذوي القربى المحتاجين هل تفقدتهم! وهل فكرت فيهم! افحص نفسك ومالك وقراباتك مَنْ أعطيت منهم هذه السنة، وهذا الشهر، وهذا الأسبوع، وهذا اليوم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

لقد تكررت آيات الدعوة للبذل والعطاء لذوي القربى وغيرهم من المحتاجين، هل تفقدتهم؟ ﴿فَإِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

لقد قَدَّمَ القرآنُ ذوي القربى على غيرهم من المحتاجين، فجعل لهم حقاً في مالك، كُن مِمَّنْ وصفهم الله بالفالحين، أسرع ولا تنسهم، واحذر التبذير والإسراف ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يُبْذَرُ بُذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

احذر أن تغرَّكَ الدنيا، فقد خَدَعَتْ غيرَكَ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

ورد أن الصحابي عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأولى بالنفقة، فجاء الجواب من السماء ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

إن هذا التشريع عامٌّ لاتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «أي: يسألك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفقِ

عليه، فأجابهم عنهما، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: مالٍ قليلٍ أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برّهما، والمُحرّم عقوقهما، ومن أعظم برّهما، النفقةُ عليهما، ومن أعظم العقوق، ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون، على اختلاف طبقاتهم؛ الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، ﴿وَالْيَتَامَى﴾، وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة؛ لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد؛ رحمةً منه بهم ولطفًا، ﴿وَالسَّكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات، وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم، لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيُعان على سفره بالنفقة، التي توصله إلى مقصده.

ولما خَصَّصَ اللهُ تعالى هؤلاء الأصناف؛ لشدة الحاجة، عَمَّمَ تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَعْلَمُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات؛ لأنها تدخل في اسم الخير، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيّته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلّتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها»^(١).

وبعد، إنه القرآن يكشف لنا واقعنا، وكيف نحن مع المال؛ فهل نجود أم نبخل؟
إنه القرآن يَدُلُّك طريقَ الخير، ويفحص ذاتك، فاصحبه واقراه بتدبرٍ وتفكيرٍ وطبقه على نفسك طالما فيك نفس يتردد!

عن أبي هريرة: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةَ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَكْثَرُ عَامِرِي مَالًا. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: رُدُّوهُ إِلَيَّ. فَرُدُّوهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: نُبِّئْتُ أَنَّكَ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٩٦).

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِيَّاكَ، وَأَخْضَفَ الْإِبِلَ، وَأَضْلَفَ
الْغَنَمَ، يُرَدِّدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى جَعَلَ لَوْنُ الْعَامِرِيِّ يَتَغَيَّرُ،
أَوْ يَتَلَوَّنُ.

فقال: ما ذاك يا أبا هُرَيْرَةَ؟

قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا، وَرَسُولُهَا. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَجْدَتُهَا وَرَسُولُهَا؟

قال: في عُسْرِها وُيُسْرِها؛ فَإِنها تَأْتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ
كَأَغْذٍ ما كانَتْ، وأَكْبَرِهِ، وأَسْمَنِهِ، وآشَرِهِ، ثُمَّ يُبْطَحُ لَها
بِقاعِ قَرَقَرٍ، فَتَطَوُّهُ بِأَخْفافِها، إِذا جاوزَتْهُ أَخْرافُها؛
أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولاهُا، في يَوْمٍ كانَ مِقدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ
سَنَةٍ، حَتى يُقْضَى بَينَ النّاسِ فيرى سَبيلَهُ، وَإِذا كانَتْ
لَها بَقَرٌ لا يُعْطى حَقُّها في نَجْدَتِها، ورَسلُها؛ فَإِنها تَأْتِي

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذٍ مَا كَانَتْ، وَأَكْبَرِهِ، وَأَسْمَنِهِ، وَأَشْرِهِ،
ثُمَّ يُطَاحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ، فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتٍ ظَلَفٍ بِظِلْفِهَا،
وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتٍ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ
عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ،
حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى يَرَى سَبِيلَهُ، وَإِذَا كَانَتْ
لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطَى حَقُّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي
يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْذٍ مَا كَانَتْ، وَأَكْبَرِهِ، وَأَسْمَنِهِ، وَأَشْرِهِ،
ثُمَّ يُطَاحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ، فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتٍ ظَلَفٍ بِظِلْفِهَا،
وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتٍ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا - يَعْنِي لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ،
وَلَا عَضْبَاءٌ - إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ أَوْلَاهَا، فِي
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ
النَّاسِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ.

فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: وَمَا حَقُّ الْإِبْلِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟
قَالَ: أَنْ تُعْطِيَ الْكَرِيمَةَ ^(١)، وَتَمْنَحَ الْغَزِيرَةَ ^(٢)،

(١) الْكَرِيمَةُ، أَي: السَّمِينَةُ النَّفِيسَةُ تُعْطِيهَا وَتَبْدُلُهَا لِفَرِكَ.

(٢) تَمْنَحُ الْغَزِيرَةَ، أَي: تُعِيرُ صَاحِبَةَ الدَّرِّ وَاللِّبَنِ الْكَثِيرَ لِلْفُقَرَاءِ؛ لِيَسْتَفِيدُوا مِنْ لَبَنِهَا، فَإِذَا حُلِبَتْ رُدَّتْ إِلَيْكَ.

وَتُفَقِّرَ الظَّهْرَ^(١)، وَتَسْقِيَ اللَّبْنَ^(٢)، وَتُطْرِقَ
الْفَحْلَ^(٣)»^(٤).

إن في القرآن الكريم الشفاء والدواء، يأمرك
بطاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الأحاديث الشريفة
تدبُّ للخير الأبدي.

إن القرآن الكريم كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَتَابُ اللَّهِ هُوَ
حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»^(٥). فَتَعَلَّقْ بِهِ
تَنْجُ وَتَسْعُدْ.



(١) تُفَقِّرُ الظَّهْرَ، أي: تُعَبِّرُ ظَهْرَهَا لِلرُّكُوبِ وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ عَلَيْهِ، وَتَحْمِلُ
عَلَيْهِ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلٍ، وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْآنَ
السَّيَّارَاتُ وَالْمَرْكَبَاتُ الْخَاصَّةُ الْآخَرَى.

(٢) تَسْقِيَ اللَّبْنَ، أي: تَحْلُبُهُ وَتَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، إِذَا كُنْتَ
فِي غُنْيَةٍ عَنْهُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمِنْ الْحُقُوقِ الْإِضَافِيَةِ الَّتِي
تُبْذَلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ بَابِ الْإِحْسَانِ وَالْمَرْوَةِ، وَلَا مُؤَاخَذَةَ عَلَيْهَا.

(٣) تُطْرِقُ الْفَحْلَ، أي: تُعِيرُ فَحْلَ الْإِبِلِ لِضُرَابِ الْإِنَاثِ وَتَلْقِيحِهَا، وَالْأَيْمَنُ إِذَا
طُلِبَ، وَلَا يُؤْخَذُ عَلَيْهِ مُقَابِلٌ.

(٤) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢٣٠-٢٣١ رَقْم ١٠٣٥٠)، وَالْحَاكِمُ (٤٠٣/١).

رَقْم ١٤٦٦)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ، وَلَمْ يَخْرُجَاهُ.

(٥) صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ (٣٧/٥ رَقْم ٢٠٢٤).

كيف تنال الأفضلية!

ارجع للقرآن تجد فيه كُلَّ شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
تَبَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

افحص ذاتك بالقرآن، وكيف العمل والتعامل تجد
الهداية والرحمة والبشارة ﴿تَبَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

كُلُّ يَرْجُو أَنْ يَنَالَ الْأَفْضَلِيَّةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَهَمُّ
الْأُمْنِيَّاتِ؛ الْمَيِّتَةُ الْحَسَنَةُ، فَالْحَيَاةُ الْحَقَّةُ، وَالْحَيَاةُ
الْأَبْقَى هِيَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْمَوْتُ خَوْفٌ، وَالْفِرَاقُ أَلَمٌ،
وَالْمَوْتُ هُوَ الْأَمْرُ الْحَتْمِيُّ، وَالْجَمِيعُ مُوقِفُونَ بِهِ!

وَالْمَوْتُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي نَهْرُبُ مِنْهُ، فَتَجِدُهُ أَمَامَنَا!
وطالما أن الموت بهذا اليقين، فكيف ننال أفضل

حالات الموت، للفوز بما بعد الموت؟ وكيف الطريق
لتلك الأفضلية؟

لو أقسم لك رئيس الدولة أو مفتيها أو من تثقُ به،
حول أمرٍ من الأمور لصدَّقته، فكيف بقسم الله سبحانه وتعالى
لقد أقسم الله عزَّ وجلَّ بأن الموت في سبيل الله خير ميتة،
يقول تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧) وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾
[آل عمران: ١٥٧، ١٥٨].

قال الشوكاني: «المقصود في الآية: بيان مزية
القتل، أو الموت في سبيل الله، وزيادة تأثيرهما في
استجلاب المغفرة، والرحمة»^(١).

وقال الواحدي في تفسيره: «قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ
قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اللام في (لَيْنَ) لام القسم؛ بتقدير:
والله لَيْنَ قُتِلْتُمْ في سبيل الله -أيها المؤمنون-

(١) فتح القدير، الشوكاني (١/٤٩٥).

﴿أَوْمُتُّمْ﴾؛ يريد: في سبيل الله؛ كقوله: ﴿وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٢٥]؛ يعني: فُرُوجَهُمْ^(١).

قال الشيخ ابن سعدي: «أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون؛ لأنه سببٌ مفضلٌ وموصلٌ إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلًّا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟^(٢)»

هذا ما ذكره علماء التفسير حول هذه الآية.

وأقول: إذن كيف الطريق للموت في سبيل الله؟ أبالغزو والجهاد العسكري؟ ومن ثم يكون القتل، مع أن القتل في سبيل الله قد يكون بغير اللقاء المسلح؛ فقد

(١) التفسير البسيط للواحيدي، (١٠٦/٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن إلى تفسير كلام المنان، (ص ١٥٤).

يكون القتل بحادث سيارة، أو لسعة أفعى، أو بتسميم أو أي وسيلةٍ من وسائل القتل، وقد يكون الموت في سبيل الله طبيعياً، بأن يتوقف قلبُ الساعي في خدمة سبيل الله وهو في سفره ومهمته الدعوية.

إن الموت أو القتل في سبيل الله، بهذا الشرط في سبيل الله، خيرٌ من الحياة، وخيرٌ مما يجمعه الناس في الحياة؛ من مالٍ وجاهٍ وسلطانٍ وكلِّ متاع الدنيا. فاحرص أن تستحضر النية وأن تكون أعمالك في سبيل الله، فإذا حملت همَّ الدعوة في سبيل الله وخدمة دين الله، وجاءك الموت وأنت ماضٍ في هذا الهمِّ، وهذه الرسالة، تكن بإذن الله ممن فازوا بالموت في سبيل الله!

احرص أن يكون، موتك في سبيل الله.

لقد نزلت هذه الآيات بُعيد غزوة أُحُد؛ تسليَةً وحثاً للجهاد والدفاع عن دين الله، فكان هذا الوعد الرباني الشريف للمجاهدين في سبيل الله المدافعين عن دين الله، ووعد الله باقي وخالدٍ إلى يوم القيامة.

إن الجهاد المسلح واجبٌ عندما يحصل التعدي المسلح ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

[البقرة: ١٩٤].

لقد منحت هذه الآية الكريمة الأمل والمجال للرحب للعاملين في سبيل الله؛ وكشفت عن الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم؛ فلئن كان الجهاد المسلح لنشر دين الله ضرورةً في زمان النبوة والعصور الإسلامية الأولى، فقد انفتحت أبواب كثيرة للعمل في سبيل الله غير الجهاد المسلح، فالتجار المسلمون في شرق آسيا نشروا دين الله وبلغوه بتطبيق قيم الإسلام، فقالوا شرف خدمة وتبليغ دين الله، وفي زماننا هذا ازدادت أبواب العمل في سبيل الله، وانفتحت أبواب كثيرة للعمل في سبيل الله، ومن أهمها ترجمة معاني القرآن الكريم للغات العالمية وتوزيعه ونشره في وسائل التقنية الحديثة، والكشف عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية، وتعليم اللغة العربية، وبعث الدعاة القدوات، وعقد الحوارات الدعوية التلفزيونية، وبيان

مزايا الإسلام بوسائل التواصل الاجتماعي، والإجابة عن التساؤلات، وكشف الشبهات، ومباشرة الأعمال الخيرية المتنوعة.

وقد فسر العلماء الجهاد في سبيل الله بالمعنى الواسع، يقول الشيخ ابن عثيمين: «﴿وَلَيْنُفْتَلِمَنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد في سبيله، ويحتمل أن يكون أعم من ذلك، بمعنى: قُتِلْتُمْ في سبيل الله في الجهاد، أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله في الدعوة إليه، أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله في بيان الحق، كل هذا داخل في سبيل الله. الجهادُ جهاد الكفار، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى الله، بيان الحق؛ لأن الجامع بينها أن هذا قُتِلَ وهوي دافع عن دين الله عَزَّجَلَّ، فالذي يُقْتَل في سبيل الله يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ خير من الدنيا وما فيها»^(١).

(١) تفسير ابن عثيمين، (٢/٣٥٩).

ومما قاله الشيخ كذلك: «يحتمل أن يكون المعنى أعمّ من الجهاد في سبيل الله بالسلاح ليشمل الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ والعلم، فمن قُتل لكونه داعية فإنه مقتول في سبيل الله؛ لأنه كالمجاهد بسلاحه.

والفرق بين المغفرة والرحمة: أن المغفرة بها زوال المكروه، والرحمة بها حصول المطلوب؛ أي أنكم يحصل لكم مطلوبكم وتتجون من مرهوبكم، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة صفة من صفات الله عَزَّجَلَّ لكنها تقتضي الإحسان إلى المرحوم والإنعام عليه.

وفي قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ إضافة المغفرة إلى الله تدل على عظمة هذه المغفرة؛ وذلك لأن الشيء يعظم بعظم باذله، فمثلاً إذا قلت: أعطاني الملك عطية، وقلت: أعطاني الصعلوك عطية، الصعلوك من هو؟ الفقير. ماذا يتصور الناس إذا قلت: أعطاني الملك عطية؟ أنها كثيرة. أعطاني الصعلوك عطية؟ أنها

خمس وعشرون هلة، قليلة، فالشيء يعظم بحسب ما يضاف إليه، فلهذا قال: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ابتداءؤها منه، فهو الذي يبتدئ بها عزَّجَلَّ ويتفضل بها.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يعني: منه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أو (خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ) من الدنيا كلها^(١).

هذا وبعد، تنبّه، فالقرآن نورٌ وضياءٌ، وهدايةٌ ورشادٌ. استيقظ من غفلتك وأسرع لنيل الأفضلية، ولا تجعل طلب الدنيا وحدها مُبتغاك وهدفك! تدبّر وفكّر واعمل خادماً لدين الله وللموت في سبيله!

واحذر التسويف والتأجيل وإمضاء وقتك في طلب الدولار والريال وتزجية الوقت والاستمتاع بلذات الدنيا ومتاعها، فالرحيل حتمي!

سابق غيرك، وكن صاحب رسالة وهم ديني، فالله يندبك ويخبرك ويُقسم لك، فهل يا ترى تستجيب؟! فلا أصدق من وعد الله.

(١) تفسير ابن عثيمين، (٢/٣٥٩).

أَسْرِعْ وَسَارِعْ فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَكُلْ يَوْمَ سَأَلَ
نَفْسَكَ مَا الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي قُمْتَ بِهَا؟ وَاجْعَلْ نِيَّتَكَ
الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

أَنْفَقْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَكَ الْأَضْعَافُ الْمُضَاعَفَةُ ﴿مَثَلُ
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

إِيَّاكَ وَالْإِمْسَاكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ تَوَعَدَ
اللَّهُ الْبَخْلَاءَ ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ
مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن
تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

احْذَرِ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تَسْتَهِنْ بِذَلِكَ
﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

إِيَّاكَ وَالْجِدَالَ وَالْكِبْرِيَاءَ وَالتَّعَالِيَّ تَجَاهَ كُلِّ مَا هُوَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تَبَّهْ فِي قَوْلِكَ، وَاحْذَرِ مَالَاتِ رَأْيِكَ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[الحج: ٨-٩].

إياك والسخريّة من العاملين في سبيل الله، احذر هذا الطريق ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

لا يأخذك الهوى نحو هذا والكراهية تجاه ذاك، فتسخر مثلاً من أمرٍ بالمعروف أو ناهٍ عن منكرٍ، فتضلّ، لقد حذر الله مَنْ هو خيرٌ منا جميعاً، حذر سبحانه نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

إن في القرآن آياتٍ كثيرةً نادرةً نحو العمل في سبيل الله. رزقنا الله نور البصيرة.



المتّقون وهل أنت منهم؟

كتبنا الله وإياكم من عباده المتّقين! سل نفسك
وأفحص ذاتك هل أنت من عباد الله المتّقين؟ في
القرآن بيان أوصافهم، اقرأها وطبقها على نفسك
تعرف أين أنت! وفي أيّ درجة.

لقد تكرر في القرآن الكريم وصف المتّقين والثناء
عليهم، وما أعدّ الله لهم من النعيم، فكيف نكون منهم؟
وكيف نعرف أننا منهم؟ إذا رغبت في فحص نفسك،
ومعرفة حالتك منهم؟ وفي أيّ درجة أنت بالنسبة لسلم
المتّقين؟ فاقرا أول سورة البقرة: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ
لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة: ١-٥].

هذه مواصفاتهم!

* إيمان بالغيب.

* إقامة الصلاة.

* الإنفاق من رزق الله وعطائه.

* الإيمان والتصديق بما أنزله الله على رسولنا محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أنزله على رُسله من قبل.

* اليقين بالآخرة.

ومعرفة هذه الأوصاف، والتصديق بمضامينها

يستلزمُ العمل بها مباشرة والإخلاص لله - سبحانه -

في الأداء والتنفيذ.

إن المعرفة شيء، والعمل شيء آخر، ولا بُد من

العلم والعمل، فاحذر التأخير والتسويف في العمل،

فقد يبيغتك الموت، ولات ساعة مندم!

في سورة الذاريات يبين - سبحانه - ما للمتقين

من نعيم، وذَكَرَ ما كانوا يقومون به من أعمال صالحة

أَهْلَتْهُمْ إِلَى تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ النِّعِيمُ الْمَقِيمُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۖ﴾ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

هذا ما كانوا يعملونه في دنياهم، فاستحقوا بذلك رضا الله ونعيمه في جنته. سائل نفسك وافحصها هل أنت من هؤلاء؟ هل تحسن للآخرين؟ وهل أنت تقيم ليلاً بالصلاة والعبادة؟ وهل أنت يقظ بالأسحار تستغفر ربك؟ وهل وهل... إلخ؟

وفي سورة آل عمران، يندب - سبحانه - عباده إلى المسارعة لنعيم أعدّه الله للمتقين، كتبنا الله منهم، يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۖ﴾ (١٣٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْظِ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن

رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلَّدَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٦﴾

[آل عمران: ١٣٢-١٣٦].

اسأل نفسك وافحصها هل أنت من هؤلاء؟ هل أنت تُنفق في يُسرك وعُسرك؟ فالإنفاق ليس خاصاً بالموسرين، الكل مندوبٌ للنفقة والصّدقة والبرّ والعطاء والجود والإحسان!

وهل أنت تكظم غيظك وتتحمل وتصبر!

دَرَبَ نَفْسَكَ، فهذه سَجِيَّةٌ يَنْدُبُكَ اللَّهُ إِلَيْهَا!

ثم كيف أنت والعفو؛ هل تسارعُ إليه؟ وهل تتجاوز عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ؟

وكيف علاقتك بالإحسان القولي والعملي؟ هل تشعرُ بحبه وتقومُ به؟

إن الله يُحِبُّ المحسنين. كتبنا الله منهم!

وحين تَجَنَحَ نَفْسُكَ وتغلبُك، فتعصي الله وتهزمُك شهوتُك، فتَذَكَّرِ الله، وعليك أن تَدمَ وتُتوب، وتَعزمَ

أَلَا تَعُودُ وَتَسْتَغْفِرُ اللَّهَ! هَلْ أَنْتَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ
جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

هذا ومما ذكره الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره
لهذه الآية، قال: «قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ المراد
به ما دون الفاحشة؛ وهي الصغائر، وإن كانت الفاحشة
لا شك أنها داخلة في ظلم النفس، لكن المراد هنا
التنويح: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وإذا كان المراد التنويح لزم
أن يكون كل نوع سوى النوع الآخر.

وقوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قد يقول قائل: كيف يتصور
أن الإنسان يظلم نفسه؟ الإنسان يدفع عن نفسه الظلم،
فكيف يظلم نفسه؟!

والجواب على ذلك أن نقول: كل من خالف أمر
الله بفعل محرّم أو ترك واجب فقد ظلم نفسه، قال

الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].
 لماذا؟ لأن النفس عندك أمانة تجب عليك رعايتها،
 وقد أوصاك الله بها فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ
 اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
 فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. فنهى الله عن قتل
 النفس، وعن ظلم النفس؛ لأنها أمانة عندك.

وبالمناسبة قال العلماء: إن الله أرحم بك من أبيك
 ووليك ونفسك.

أما كونه أرحم بك من أبيك، فإن الله قال: ﴿يُوصِيكُمُ
 اللَّهُ فِي أَوْلَادِهِ لِلَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنَ آبَائِهِمْ وَالْأُمَّهَاتِ
 بِالْأَوْلَادِ، إِذْنُ فَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَمَّا
 بالعكس أن يكون أرحم بك من أبنائك، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا
 الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، وأما أرحم بك من نفسك
 فلأن الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَلَا تُلْقُوا
 بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. إذن نقول: وجه كون الإنسان

ظالمًا نفسه أن نفسك عندك أمانة، فإذا فرطت في هذه الأمانة بأن أقحمت نفسك فيما حرم الله عليك، أو تأخرت عما أوجب الله عليك، فقد ظلمت نفسك. ظلم النفس هو في نفس الواقع ظلم في حق الغير؛ لأن ظلم النفس إما في حق يتعلق بالله عزَّ وجلَّ، وإما في حق يتعلق بال مخلوق، فإن كان في حق الله، فإنك ظالم في حق الله، وإن كان في حق المخلوق، فإنك ظالم في حق المخلوق. قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»^(١). وبهذا نعرف أن من ظلم نفسه فقد ظلم ثلاثة: ظلم نفسه، وظلم حق الله عزَّ وجلَّ، وظلم المخلوق؛ لأن كل هذه تتعلق بأوامر الله ونواهيه^(٢).

وبعد، احرص يا عبد الله، أن تكون من المتقين الذين جَلَّاهُمْ الْقُرْآنُ وَبَيَّنَ صِفَاتِهِمْ، وَاقْرَأْ هَذَا النِّعَمِ الْمَوْعُودُ بِهِ الْمُتَّقُونَ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧/٥ رقم ٢٢٨٧)، ومسلم (١١٩٧/٣ رقم ١٥٦٤).

(٢) تفسير ابن عثيمين، سورة البقرة، الآية: ١٣٥، ١٣٦.

يُحَوِّرُ عَيْنَ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِينَ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿الدخان: ٥١-٥٧﴾.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿الحجر: ٤٥-٤٨﴾.

لا نكد الدنيا وكدرها، لا غلٍّ ولا غيره، ولا عداوة ولا حسد، بل محبة وأخوة.

وفي سورة الطور نقراً وعداً عذباً تشتاق له النفوس، وتودّه القلوب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَلْتَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ

عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
 ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا
 عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾
 [الطور: ١٧-٢٨].

إنه النعيم الخالد، والوعد الصادق، فلا عطاء
 أفضل من أن تنال أنت وذريتك رضا الله.

وفي سورة القمر يعرض جَلَّالُهُ لونا وشكلاً من
 أشكال نعيم المتقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي
 مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

ويُكرَّرُ عَزَّجَلَّ وعده ويعرض ما هو قادم، فهل تتمنى
 ذلك يا عبد الله، يقيني أنك وأنا وكل مؤمن يرجو ذلك.
 إن القرآن مائدة عظيمة فيها الطمأنينة والمسرة!

وهل بعد وعد الله العذب الوارد في سورة المرسلات
 من وعد؟

وهل ثمة نعيم أحلى وأكثر شوقاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) وَفَوْكَه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَيْئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

قِفْ واقراً وتأمل ما ورد من نعيم للمتقين جاء في سورة عمّ، واعمل طالما أنك في مرحلة العمل، أنت وأنا اليوم في مرحلة الإمهال والاختيار، وغداً الثواب والعقاب ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ [النبا: ٣١-٣٦].

هذا هو القولُ الحقُّ، والوعدُ الصادقُ، فكيف نغفلُ عنه؟!

والغِبْنُ ألا نعرض ذواتنا صباح مساء لهذه النفعات الإيمانية؟

والخسارة أن نهتمَّ بأجسادنا، ونتردّد على الأطباء والمستشفيات، وندفع الريالات، ونعمل بنصائح الأطباء؛ لأجل حياة الدنيا القصيرة، وننسى القرآن

خَيْرَ فَاحْصٍ لِحَالِ الْآخِرَةِ الْخَالِدَةِ! كَرَّرَ قِرَاءَةَ آيَاتِ
صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، وَالتَزَمَ بِتَطْبِيقِهَا تَتْلِي الْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].



المِرآة العاكسة

أَتَوَدُّ مَعْرِفَةَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ! وَتَرْغِبُ فِي
رُؤْيَا النِّعِيمِ الْقَادِمِ لَكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ!

أَتُرِيدُ رُؤْيَا مَا فِي جَنَّةِ الْآخِرَةِ مِنْ نَعِيمٍ كَمَا تَرَى
صُورَتَكَ فِي الْمِرآةِ!

إِنْ ذَاكَ النِّعِيمُ مَبْثُوثٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَكَيْفَ تَعْلَمُ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ ذَاكَ النِّعِيمِ الْعَظِيمِ؟

إِنْ ذَاكَ مُتَسَيِّرٌ فِي الْقُرْآنِ؛ إِذْ تَسْتَطِيعُ فَحْصَ
نَفْسِكَ مَعَ الْقُرْآنِ لِتَعْرِفَ ذَلِكَ!

يُوضِحُ الْقُرْآنُ أَنَّكَ إِنْ التَّزَمْتَ بِهَدْيِ اللَّهِ، وَنَهَيْتَ
نَفْسَكَ عَنِ الْهَوَى فَتَسْتَرَى مَكَانَكَ مِنْ ذَاكَ النِّعِيمِ الْحَقِّ،

فيقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

احذر هواك أن يضلَّك، واكبح شهوتك أن تُذلَّك
﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

انظر بتأملٍ وتدبّر في كلماتٍ ثلاثٍ تكررت في
القرآن الكريم إن حققتها فأبشر بالخير هي؛ آمنوا،
وعملوا، والصالحات، إن أجَدَتِ تنفيذها بإخلاص
واستمرار، فلك وعد الله بالجنة، اقرأ قوله تعالى:
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾
[النساء: ١٢٢].

كرّر فحَصَ نفسك مع هذه الأمور الثلاثة، واحرص
على تنفيذها، وسائل نفسك كل يوم عن الأعمال
الصالحة التي ستقوم بها، وتذكر تلك الآيات المُبشرة
﴿وَيَبْشِرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ

قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾
[البقرة: ٢٥].

واستحضر وعد الله دومًا ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

وحين تمضي في تقديم الأعمال الصالحة، فاعلم أنها محفوظة، لا يضيع منها قدر الفلس ولا وزن الخردلة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠-٣١].

ستجد ما قدمت حاضرًا جميعه ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

واقرا النعيم المنتظر، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦، ٥].

جعلنا الله منهم، ولكي نكون من أولئك الأبرار علينا
أن نقرأ صفاتهم ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧)
وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ [الإنسان: ٧-٩].

لقد أكرمهم الله حين أطاعوه وصدقوه ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ
ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ (١١) وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾
مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا
وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةِ مَنَافِيٍّ وَكَوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾
قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾
عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ
لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نِعَمًا وَمَلَأَ كَيْدًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أَسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ١١-٢٢].

إلهي نسألك نور البصيرة، ونسألك الهداية لنيل
هذا النعيم!

إن هذا النعيم عامٌ لكل الأبرار، فهل أنت منهم؟
افحص ذاتك، كفى بنفسك عليك حسيبا! ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّ خَلُّهُمُ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ [النساء: ٥٧].

عن أبي زهير الثقفي: «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة أو البناوة. قال: والنبوة من الطائف. قال: يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قالوا: بَمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ»^(١).

وورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: مروا بجنابة فأتوا عليها خيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت، ثم مروا بأخرى فأتوا عليها شراً فقال: وجبت، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: هذا أثبتتم عليه خيراً فوجب له الجنة، وهذا أثبتتم عليه شراً فوجب له النار، أنتم شهداء الله في الأرض^(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤١١/٢ رقم ٤٢٢١)، والحاكم (٢٠٨/١ رقم ٤١٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٢٦/٢): وإسناد حديثه صحيح رجاله ثقات
(٢) أخرجه البخاري (٥٤٨/٦ رقم ٢٦٤٢)، ومسلم، (٦٥٥/٢ رقم ٩٤٩).

مَسَاءَلَةُ النَّفْسِ!

مهما أخفيت من حديث، ومهما طويت من سرٍّ
فالله يعلمه! ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ
اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

كيف أنت وهذا النص القرآني، سل نفسك عن
كل عمل تخفيه، وتخشى أن ينكشف، كيف أنت وعلم
الله، لا سرٍّ ولا نجوى دون علمه سبحانه! سيان أخفيت
أو أعلنت، فالله يعلم كل شيء ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

هل تستحضر قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

هل وقفت وتدبرت معاني هذه الآية، وعرفت القدرة الربانية، وكيف أن ما بداخل نفسك معلوم لله!

يخشى الناس اليوم من هواتفهم أن قد تُراقب من بُعد، فيعلم المراقب البعيد أسراركَ وخاصيتكَ، فتحتاط وتُبعد الهاتف؛ لتسلم من عين المراقب البشري وسمعه، فكيف برقابة الله، إنه يعلم - سبحانه - ما في نفسك؛ فلا مفر، ولا مهرب.

وفي سورة الحديد يَرِدُ عِلْمُهُ وَمَعِيَّتُهُ، فكيف تتخفي وكيف تَسْتَتِر؟ لئن استطعت التخفي من البشر فلن تستطيع التخفي من ربِّ البشر، اقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

حين يتناجى مُتَنَاجُونَ في نقدِ هذا وعيبِ ذاك، ويصمتون حين يصلهم غريبٌ خشيةَ معرفتهِ حديثهم، ألا يتذكرون هذه الآيات وما تكرر مثلها في القرآن ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

* أَدْرِكَ نَفْسَكَ، فَلَدِيكَ كَتَبَةٌ!

* احْفَظْ لِسَانَكَ، فَلَدِيكَ رِقَابَةٌ!

إِنْ وَشَيْتَ بِشَخْصٍ وَشَوَّهْتَ سِيرَتَهُ لِأَجْلِ الدُّنْيَا،
فَتَذَكَّرَ الْعَتِيدَ الرَّقِيبَ الْمُصَاحِبَ لَكَ! وَتَذَكَّرَ وَقُوفَكَ
عِنْدَ اللَّهِ مَعَ مَنْ وَشَيْتَ بِهِ وَحَرَّشْتَ عَلَيْهِ، سَوْفَ
تَتِمُّ هُنَاكَ الْمُحَاسِبَةُ وَالْمُكَاشَفَةُ، وَتَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ،
فَحَذَرِ حَذَارٍ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَدَعْ عَنْكَ أَذِيَّةَ النَّاسِ،
وَاحْذَرِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَوَجَاهَتَهَا، فَهِيَ مَتَاعٌ زَائِلٌ سَوْفَ
تَحْضُرُونَ وَتَتَحَاسِبُونَ! ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٠ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا
حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ
الْمُخْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

إِفْحَصْ نَفْسَكَ مَعَ هَذِهِ النُّصُوصِ، وَتَذَكَّرِ الرِّقَابَةَ
الرَّبَّانِيَّةَ!

اعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا هَمَمْتَ بِغِيْبَةٍ هَذَا أَوْ نَقَدِ ذَاكَ، فَقَوْلُكَ
مَحْفُوظٌ؛ فَمَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسَكَ مَعْلُومٌ لِلَّهِ، فَالْمُتَلَقِّيَّانِ

معك يسجلان! ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلَفَيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٦-١٨﴾.

استحضر هذه الآية في خلوتك واجتماعك، اجعلها أمام ناظريك وفي أعمالك؛ لعلَّ الله يعصمك من الزلل والخطأ.

وحين يضمك مجلسٌ صحبٍ يميلُ حضوره عن جادة الحق؛ بقولٍ سوء، أو حديثٍ غيبيةٍ، أو مُمارَسةٍ معصيةٍ، تذكرُ وأنت في هذا المجلسِ الجانحِ، قوله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

إذا جئت يوم القيامة، وأخبرك الله عن قولك وعملك في تلك الجلسة، ماذا ستقول؟ أعدد جوابك، واستحضر تلك الجلسة المشبوهة، وافحص نفسك اليوم قبل تلك المساءلة، واحفظ هذه الآية وتذكرها في تلك المجالس المريضة!

اهرب واهجر من زين لهم الشيطان سوء أعمالهم،
واحذر شيطانك، فإذا تساهلت ومررت جلسة وجلسة،
فسوف يترقق شيطانك ويرغبك في العمل السيء
﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

افحص نفسك بالقرآن، فهو خير ناصح، وخير
طبيب! ولا تغتر بما منحك الله وخصك به، من علم،
أو مال، أو جاه، أو رزانه وعقل، أو وظيفة ومنصب. سل
الله نور البصيرة، وجادة الحق ﴿أَفَنُؤْمِنُ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ
حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

إن الخطر والهلاك، أن ترى عملك السيئ حسناً،
تنبه واصحب الأخيار، واقترب من أهل القرآن، ففي
القرآن الهداية، والفحص الحق!

وكرر ما ورد في أفضل سور القرآن؛ سورة الفاتحة،
بسؤال هداية الله، لطريقه المستقيم ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

إن كبار كفار قريش لهم عقولٌ راجحة، ولكن غلبتهم الشقاوة والحسد، وزين لهم الشيطانُ الكفر والضلال، وجرّهم للهلاك، ثم تبرأ منهم في معركة بدر ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

احذر الشيطان وتزيينه، وتأمل هذه الآيات، وكيف أغوى ويغوي الكثيرين، ثم يتبرأ منهم. اجعل القرآن مناعتك ودواءك.

تذكر خطبة الشيطان، يوم البراءة الكبرى والنهاية العظمى يوم القيامة! هل تعرف تلك الخطبة؟ احفظها وتدبرها، فهي في سورة إبراهيم، وقد عرضها - سبحانه - لنا ونحن أحياء نعقل ونعرف، تأملها واهرب من الشيطان قبل هروبه منك ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا

يَمْصُرِحُكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِينَ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ
قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

في ذلك اليوم لا ينفع الندم، وإنما هناك حُسرَةٌ^{٢٨}
وعذابٌ أبدي. نسألُ اللهَ الثباتَ والنجاة، ونسألهُ
السلامة من الشيطانِ ووسوسته، ونفخه ونفثه!



مسؤوليتنا تجاه الدعوة

يفضل الكثيرون من ذوي العلم والبصيرة، عن واجب أمرهم الله به، وهو الدعوة لدين الله وتبليغه للآخرين.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

تدبر هذه الآيات، وسائل نفسك؛ هل قممت بواجبك، فذكرت بالله ودعوت إلى سبيل الله؟ اخل بنفسك وحاورها كيف أنت والدعوة إلى الله؟ افحص نفسك فما خلقتك الله بهيمة لا تعقل، لك عقل ستسأل عنه؟

هذه خطابات ربّانية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأتباعه من ذوي العلم والمعرفة، وأنت تعلّمت وقرأت القرآن، وقد أمرك الله بالتفكير والتدبر، وأنت تعرف نفسك وتكاسلك، والله - سبحانه - يعلم مواهبك وقصورك، وسوف يسألك عما تستطيعه وقصّرت في أدائه، فالبدار البدار قبل السؤال!

إن إبليس سوف يعمل على صَرْفِكَ عن همّ الدعوة ويُلبّس عليك، فاحذره أن يغلبِكَ. فصحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعوا القرآن وفهموه، وانطلقوا في الآفاق ينشرون دين الله، ويدعون إليه، أين نحن منهم؟ لم تمنعهم وسائل النقل، ولا عدم إجادة لغات الآخرين من تبليغ الدعوة، لبوا النداء، فتسابقوا دُعاةً إلى الله في الآفاق.

فكّر وافحص نفسك مع الدعوة إلى الله، وهل بذلت ولو سيراً في سبيل الله؟ هل صرفت من مالك شيئاً في برنامج من برامج الدعوة إلى الله؟ مثل كفالة داعية، طباعة كُتُب، ترجمة خطبة دعوية. وهل

قمتَ بزيارة مكاتب توعية الجاليات، وقدمتَ المعونة المادية أو المعنوية لهم أو صرفتَ جزءاً من وقتك في مساعدتهم في العمل؟ ومواقع التواصل الاجتماعي الدعوية؛ أين أنت من دعمها والتعريف بها؟ جارك أو زميلك في العمل إن كان غير مسلم؛ هل استهدفتَ دعوته؟ فراكُ قدوةً في أخلاقك وتعاملك، وتلطّفتَ معه ورغبته في دين الله، وأهديته القرآن؟ التجار المسلمون الأوائل نشروا دين الله في قارة آسيا بأمانتهم وحُسن تعاملهم!

إذا حَضَرَتَ يوم القيامة وبدأتِ المساءلة، وسُئِلتَ عن إسهامك في الدعوة إلى الله، فماذا تقول؟ إذا السائقُ والخادمةُ في منزلك، والعامل في متجرِكَ حضروا يوم القيامة وخاصموكَ في عدم تعريفكَ لهم بالإسلام وترغيبهم فيه، فما هي حُجَّتُكَ؟

اقرأ القرآن وتدبّرهُ، واعملْ بأوامره، وكُنْ داعيةً لدين الله وفق طاقتك ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كَنْبٌ يَخْطُبُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

كتابك سينطق بعملك يوم القيامة ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

قِفْ واستغرق في تأمل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن هذه الآية الكريمة أصلٌ عظيم في مشروعية الدعوة إلى الله، فالكلُّ مأمورٌ بالدعوة إلى الله وفق قدرته ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

شابٌّ مغربي التقى في سيؤل بالسيدة (هيونق سونق)، وهي امرأة كورية مسيحية، ساعدها في موقفٍ عرضي حدث لها فشكرته، وأخذت رقم هاتفه، ثم تواصلت معه، ودعته في مطعم كوري، وعرفت امتناعه عن أكل لحم الخنزير، وسألته عن السبب،

فقال: إنه الإسلام يمنعنا من أكله. فقالت له: إنها توقفت عن أكل لحم الخنزير منذ أسبوع؛ حيث قرأت كتاباً في اليهودية، ووجدته يتفق مع ما في الإنجيل من تحريم أكل الخنزير. وهنا أدّى هذا الشاب المسلم واجبه في الدعوة إلى الله، فاقترح عليها قراءة كتاب المسلمين القرآن فرحبت بذلك، ومن ثمّ أهداها فيما بعد نسخة مترجمة لمعاني القرآن الكريم، فقرأت فيها، ثم التقت بالشاب مرّة أخرى، وكانت مذهولة مما استوعبته، وقالت: إن هذا الكتاب يُشبه ما يُكتبُ عندنا في الإنجيل، ولا يُمكنُ أن يكونَ مكتوباً من إنسان. فسألها الشاب العربي لماذا؟ قالت: لأنها تدرُسُ أن الإسلام دينُ اخترعه محمد، وأن القرآن كتبه محمد، فلما قرأت ترجمة معاني القرآن قالت: إنه لا يُمكنُ أن يكون مكتوباً عن طريق إنسان، وأنه يتشابه مع الكتاب المقدس، وأحسن منه في البيان ومفهومٌ جدّاً، والكتاب المُقدَّس غير مفهوم، وأفكاره مُتضاربة. وكررت قولها للشاب: قرأت القرآن عدّة مرات وهو مفهوم، مفهوم.

إنه القرآن بركةٌ ونور، كيف لو كانت هذه المرأة تعرف العربية وتُجيدها؟ أين أبناء اللغة العربية وغفلتهم عن قراءة كتاب الله والتذكير به؟ امرأة كُورية لا تعرف العربية، وقرأت ترجمة معاني القرآن، فبهرها وأسلمت في العشر الأواخر من شهر رمضان عام ٢٠٠٥م بالمركز الإسلامي في سيؤل بكوريا، وتسمت بفاطمة، ومضت تتعلم الإسلام، وتتعلم في فهمه ودراسته. لقد أراد الله بها الخير، فكان ذاك الموقف البغيض العارض سبباً في هدايتها لدين الله ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

كان الحدث بقرب ذاك الشاب المغربي المبارك، الذي كان سبباً في صرفها عن باطل كانت ماضية في طريقه، كانت تتردد على الكنيسة في كوريا، وتجتهد لتصبح داعية خارج كوريا للديانة النصرانية الباطلة في دول إفريقية، ولكن -بتوفيق الله، ثم ببركة ذاك الشاب المغربي- صارت داعية إلى دين الحق، إلى

الإسلام في بلدها كوريا. بُوركت تلك المرأة، وبورك ذلك الشاب، كم له من الأجر! رُدّها عن إضلال الآخرين، وأخذها لطريق الخير، وشاركها في كسب أجور من يُسلم على يديها. هذا نموذج من نماذج الحسّ الإسلامي، لقد جسّد المسؤولية الفردية الدعوية^(١).

إن الدعوة إلى الله مسؤولية بيّنها الله - سبحانه - في القرآن الكريم، فقد تكرر التنبيه للدعوة والتبليغ ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فما هو إسهامك في تبليغ القرآن؟

مما قاله ابن عاشور في تفسيره: «إِضَافَةُ (سَبِيلِ) إِلَى (رَبِّكَ) بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ أَرْشَدَ إِلَيْهِ، وَأَمَرَ بِالتَّزَامِهِ. وَصَارَ هَٰذَا الْمُرَكَّبُ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٢٦]. وهو المراد هنا، وفي قَوْلِهِ عَقِبُهُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [القلم: ٧].

(١) كوريا الجنوبية أشواق وآفاق، د. عبدالمحسن بن عبد الرحمن آل الشيخ.

وَيُطَلِّقُ سَبِيلَ اللَّهِ عِلْمًا بِالْغَلْبَةِ أَيْضًا عَلَى نُصْرَةِ
الدِّينِ بِالْقِتَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وَالْحِكْمَةُ: هِيَ الْمَعْرِفَةُ الْمُحْكَمَةُ؛ أَيِ الصَّائِبَةُ
الْمُجَرَّدَةُ عَنِ الْخَطَأِ، فَلَا تُطَلَّقُ الْحِكْمَةُ إِلَّا عَلَى
الْمَعْرِفَةِ الْخَالِصَةِ عَنْ شَوَائِبِ الْأَخْطَاءِ، وَبَقَايَا
الْجَهْلِ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ وَفِي تَهْذِيبِهِمْ، وَلِذَلِكَ عَرَّفُوا
الْحِكْمَةَ بِأَنَّهَا: مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ
بِحَسَبِ الطَّاقَةِ الْبَشَرِيَّةِ؛ بِحَيْثُ لَا تَلْتَبِسُ عَلَى صَاحِبِهَا
الْحَقَائِقُ الْمُتَشَابِهَةُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَلَا تُخْطِئُ فِي الْعِلَلِ
وَالْأَسْبَابِ، وَهِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ كَلَامٍ أَوْ عِلْمٍ يُرَاعَى
فِيهِ إِصْلَاحُ حَالِ النَّاسِ، وَاعْتِقَادُهُمْ إِصْلَاحًا مُسْتَمِرًّا
لَا يَتَغَيَّرُ^(١).

هذا وقد أبان -سبحانه- أن الدعوة إلى الله مراتب
وفقاً لحالة المدعوين، وجاء بيان منهج الدعوة إلى

(١) التحرير والتنوير، (١٢/٢٦٢-٢٦٣).

الله، ومن ثم ضرورة التزود بأساليب الدعوة، فخطاب خادمة البيت غير خطاب المتعلم ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

«أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾؛ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها،
والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من
قام بدين الله وإهانة من لم يقيم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل
والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل،
فإن كان (المدعو) يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية
إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي
تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقد أنها،
فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة
إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل
الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى
الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ علم السبب
الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على
ضلالته وسيجازيه عليها.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية
فهذا هم، ثم من عليهم فاجتباهم^(١).

وذكر ابن القيم في تفسيره قول بعض السلف: «إذا
أردت أن يقبل منك الأمر والنهي فإذا أمرت بشيء فكن
أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء،
فكن أول المنتهين عنه^(٢)».

هذه تأملات في واجب الدعوة الذاتية، وفقنا الله
وأرشدنا لهديه المستقيم، ووقانا الشيطان وتسويفه
وتلبيسه ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٣٧) وإن جادلوك
فقل الله أعلم بما تعملون^(٣٨) الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم
فيه تختلفون^(٣٩) ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك
في كتاب إن ذلك على الله يسير^(٤٠) [الحج: ٦٧-٧٠].



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٤٥٢).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (١/ ٤٤٧).

مسؤوليتنا نحو التذكير

أنت، وأنا، وهي، وهو؛ هل تعرفون واجبكم نحو التذكير بالله؟ حين تقرأ قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٥٥]. هل ساءلت نفسك عن هذا الأمر الربّاني وأين أنت منه؟!

قال الشيخ ابن عاشور في تفسيره: «خَصَّ التَّذْكِيرُ هُنَا بِالْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ التَّذْكِيرَ الَّذِي يَنْفَعُ الْمَذْكَرَ. فَالْمَعْنَى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ فَيَتَذَكَّرُ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا﴾ [النازعات: ٤٥]»^(١).

إن التذكير بالله، والدعوة إلى الله مسؤولية جلية سوف نُسأل عنهما؛ فالدعوة إلى الله هي إبلاغ دين الله

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٢٣/٢٦).

لجاهل بالدين، هي ما انطلق الصحابة من المدينة المنورة ينشرونه ويُبَلِّغونه لغير المسلمين، هي مسؤوليتك في إرشاد غير المسلمين وتعريفهم بدين الله.

أما التذكير بدين الله فهو للمسلمين، هو التجديد المستمر، والوعظ المتتابع، والتذكير من الغفلة عن دين الله الحق.

هل وقفت وجلست تُناجي ذاتك عن مسؤوليتك في تنبيه أسرتك وزميلك لقراءة القرآن وتدبره؟ قد يقول بعضكم هذا الأمر الرباني للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونقول نعم هو للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن أُمَّتَهُ، وأنت منهم، مشمولون بذلك الأمر. ورد في تفسير القرطبي وتفسير البغوي: أن الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمراد أُمَّتُهُ^(١).

لا تَقُلْ تِلْكَ مَسْئُولِيَّةُ الدُّعَاةِ والمختصين في العلم الشرعي، نعم مسؤوليتهم كبيرة، لكن كلُّ مُتَعَلِّمٍ يُجِيدُ

(١) ورد هذا المعنى في أكثر من موضع من تفسير القرطبي رَحِمَهُ اللهُ، على سبيل المثال ورد في (١٦٢/٢)، وتفسير البغوي (١/٤٤٩، ٥٥٨).

العربية وشيئاً من المعرفة القرآنية والفهم العربي
لدلالات القرآن الكريم سوف يُسأل عن دوره في
التذكير ولم قصر؟!

إنها مسؤولية ذاتية؛ تنبّه لها، واستعدّ للسؤال عنها
يوم القيامة!

توزيع القرآن الكريم، وطباعة ترجماته، والإسهام
بالمال والجهد في تبليغه مسؤولية جماعية!

تنبّه غيرك وترغيبهم لهذا المجال، وتذكيرهم
بخدمة القرآن مجال تذكيري؛ أين أنت منه؟

في هذه الآية ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ نصّ الحقُّ
- سبحانه - على التذكير بالقرآن لمن خاف الوعيد!
وكلُّنا نخاف الوعيد، نخاف من يوم القيامة، نخاف
من المحاسبة! إذا جاء القرآن وقد عُرضت للنقاش،
وقال عنك القرآن: هجرني وما قرأ؟ هجرني وما ذكر
بي؟ هجرني وما أسهم في تبليغي للآخرين، هجرني
وما نبّه أسرته لتلاوتي، هجرني وهو يستطيع خدمتي

ونشري في أجهزة التواصل وما فعل! هجرني وما حضر
جلسات التدبر القرآني، فاستعدّ للجواب.

بادرّ وافحص نفسك باستمرار مع هذا الشأن قبل
الرحيل والندم.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

[الفرقان: ٢٠].

قال الطنطاوي في تفسير الوسيط: «قد اشتملت
هذه الآية الكريمة على التخويف العظيم لمن يهجر
القرآن الكريم، فلم يحفظه أو لم يحفظ شيئاً منه، ولم
يعمل بما فيه من حلال وحرام، وأوامر ونواه.

قال بعض العلماء هجر القرآن أنواع: أحدها: هجر
سماعه وقراءته. وثانيها: هجر العمل به والوقوف عند حلاله
وحرامه. وثالثها: هجر تحكيمة والتحاكم إليه في أصول
الدين وفروعه. ورابعها: هجر تدبره وتفهمه. وكل هذا دخل
في هذه الآية، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»^(١).

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، (١٩٣/١٠).

وفي آية الأعراف يُنصُّ الحقُّ عَزَّوَجَلَّ أن القرآن إنذار وتذكير ﴿كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنَذِيرٍ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

إنه كتابٌ أنزله الله لينذر ويخوِّف الكفار، وهو موعظةٌ للمؤمنين المصدقين بما جاء به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى لرسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: كتابٌ جليلٌ حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيقٌ وشكٌ واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، وأنه أصدق الكلام، فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائماً ومعارضاً.

﴿لِنُذِرَ بِهِ﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين.

(و) ليكون (ذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ)، كما قال تعالى: ﴿وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد، وبين سلوكه^(١).

فالذكر طاقة حيوية متجددة تريح النفس، وتطمئن القلب، وتنفع المؤمنين بكل ما في النفع من عموم وشمول لكل حالات المؤمنين.

وفي سورة العنكبوت يُقرر سبحانه أن القرآن الكريم رحمة وذكرى لقوم يؤمنون: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وحين يسأل ويقول كيف أذكر بالقرآن؟ ورد أن

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٢٨٣).

الصحابة إذا قابل أحدهم الآخر قرأ عليه سورة العصر. فمتى تجلس مع أسرتك أو أصدقائك وتتدبرون آية من آيات الله، وتتواصون بالحق والصبر، كما كان الصحابة يفعلون؟!

تلاوة ما يتيسر من آيات الإنذار وآيات البشارة تذكيرٌ وتنبية.

استحضار الآخرة ووعيد الله للغافلين ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

يقول الشعراوي: «﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: حينما ينذر القرآن بشيءٍ يُصَرَّفُ هذا الإنذار على أوجهٍ مختلفة، ويُكرَّر الإنذارُ لينبّه أهل الغفلة.

يعني: لَوْنَا فيه كل أساليب الوعد والوعيد، فكل أسلوب يصادف هوى في نفس أحد المستقبلين، فحاطبنا الأهواء كلها بكل مستوياتها، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر، الكل يجد في القرآن ما يناسبه؛ لأنه

يُشَرِّعُ للجميع، للفيلسوف وللعامي، فلا بُدَّ أَنْ يكون في القرآن تصريحٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع.

والتصريف: يعني التحويل والتغيير بأساليب شتى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة عند نزول القرآن لعلها تصادف وعياً واهتماماً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣] الالتقاء عادة يكون للشر والمعاصي المهلكة، أو يُحْدِثُ لَهُمُ الذِّكْرَ والشرف والرفعة بفعل الخيرات، وهذا من ارتقاءات الطاعة.

ذلك لأن التكليف قسمان: قسمٌ ينهاك عن معصية، وقسمٌ يأمرك بطاعة، فینهاك عن شُرْبِ الخمر، ويأمرك بالصلاة، فهم يتقون الأول، ويُحْدِثُ لَهُمُ ذِكْرًا يوصيهم بعمل الثاني^(١).

وذاك الْمُعْرِضُ الغافل عن ذكر الله قال الله عنه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) تفسير الشعراوي، (١٥/٩٤٠٤).

أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ
ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
بَيَأْتِنِ رَبَّهُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿طه: ١٢٤-١٢٧﴾.

احذر الغفلة والنسيان، تنبّه ليوم الحساب والجزاء!
وتكررت في القرآن بشارة الله للمؤمنين الذين
يعملون الصالحات، لكن بشرط الإيمان.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٤]. بشارة ربّانية، وما أكثر بشائر الحق
وترغيبه في فعل الخيرات!

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. كلٌّ يأمل
أن يعيش في دنياه حياة طيبة، وفي آخرته ينشد الجزاء
الحسن، وهنا يعدُّ ربُّنا بأن الثواب سيكون وفق أحسن
أعمالك. ربّاه لك الحمد ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوبٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرٍ رَّزِقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُوتَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]. نسأل الله من فضله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦]. رزقنا الله محبته وودّه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ وَهُدًوَا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًوَا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿[الحج: ٢٣، ٢٤]. جَنَّاتٌ فِيهَا أَنْهَارٌ جَارِيَةٌ، وَأَسْوَارٌ وَأَلْبَسَةٌ وَنَعِيمٌ وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ الْعَذْبُ الْحَلُوهُ. رَبَّاهُ نَسَأَلُكَ الْقَبُولَ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

هذا، وبعد سماع وقراءة هذه الآيات وتدبرها، هل ثمة أحلى وأجمل من هذا التذكير القرآني؟

سائل نفسك عن العمل الصالح الذي أدّيته هذا اليوم.

إن الأعمال الصالحة مجالٌ واسع، فريالٌ تتصدق به؛ عملٌ صالح، وإصلاحٌ بين متخاصمين؛ عملٌ صالح، وأداؤك عملك بأمانةٍ وعدالةٍ وإخلاصٍ؛ عملٌ صالح، وتذكيرك بالقرآن؛ عملٌ صالح. إن الأعمال الصالحة

كثيرة ومتنوعة، فشمر واعمل ليوم التغابن؛ يوم الحسرة والندامة. أدرك نفسك قبل الرحيل!

اقرأ قصة الطالب الأفغاني، وانظر أين أنت منه؟

استضفت ذات مرة مجموعة من طلاب المنح في جامعة الملك سعود بنية إكرام ضيوف بلدي القادمين لأجل العلم والتفقه في دين الله، ومذاكرتهم وإشعارهم بالتقدير والحب في الله، وأحسبهم ممن قال الله في وصفهم: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْهَقْلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وحين جلست وإياهم نتبادل أطراف الأحاديث، رغبت تذكيرهم بالله والعمل لخدمة دين الله، وإذ بأحدهم يحدثني بحديث صغرته نفسي حين سمعته، وعلمت أن في أرض الله جنوداً خفيين، يحملون هم التذكير والرسالة، إي والله قسمي، جهود يسيرة، لكنها جليلة.

أتى الطالب حسيب الله من أفغانستان على المملكة، وشكر لها أنها استضافتهم للعلم، وأنفقت

عليهم، وقال: بعد أن بدأت دراستي، وصرتُ اسلِّمُ
مكافأةً شهرية، فكّرتُ في بلدي الذي جئتُ منه، وواجبي
نحو جماعتي، ووجوب تعليمهم دين الله وتبصيرهم
بتعاليمه، فقررتُ أن افتتح مدرسةً في قريتي، وحين
عُدْتُ في إجازتي رتبتُ الأمور، والتزمتُ بأداءِ درسي
يومي لهم عن بُعد، وعيّنتُ مُعلِّمينَ التزمتُ لكل واحدٍ
منهما براتبٍ شهري قدره خمسون ريالاً سعوديًّا أُحوّله
لهما من الرياض فور استلامي مكافأتي من جامعة
الملك سعود، وبدأت الدراسة وانتظم فيها قرابة تسعين
دارساً نُعلِّمهم كل صباح القرآن والعقيدة. ومعلومُ فارق
الوقت بين الرياض وأفغانستان؛ إذ أستيظ مُبكراً
وأدرّس مادتي قبل موعد الدراسة هنا.

همةٌ عظيمة، أين أنت أخي في الله من هذا الطالب
البسيط، يقتطعُ من مكافأته مئة ريالٍ شهريًّا لتعليم
القرآن الكريم والعقيدة في وطنه.

ماذا عملت أنت؟ سلّ نفسك وحاسبها ولا تستصغِرْ
جُهدك. أحسبُ هذا الطالب من الضارين في الأرض

يبتغون من فضل الله ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

لقد آتى الله هذا الطالب الأفغاني فضله؛ فوققه
وبارك له في وقته وعلمه وماله.



مضمار التورع

الدنيا رحلة، والبقاء لله! والمتأمل في القرآن الكريم يجد التنبيه والتحذير من فتنة الدنيا، والأمر بالعمل للآخرة، فهي الأبقى!

وأهل العلم الشرعي، كغيرهم من رجال العلوم الأخرى، يجتهدون، ويصيبون، ويخطئون!

والملاحظ أن ثمة فئة تتطفل على العلم الشرعي، ويحسبون أنهم يفهمون، ولا يتورعون؛ فيفتنون، ويلتمسون تفسيراتٍ خلافاً لما استنبطه العلماء الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وربما يتناول بعض أولئك المتجاوزين، فيسخرّون من العلماء، ويزعمون أن العلم

ليس حكراً لهذا أو ذاك، وأنهم يفهمون ويستنبطون أحكام تضليل وتأويل. فاحذر أخي غواية أولئك وتورّع، فقد تزل قدمك عن سبيل الله، وتتبع خطا الشيطان دون علم ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

إن الله جلّ جلاله في هذه الآية يمتنُّ على عباده المؤمنين أن هداهم وصرّفهم عن اتباع الشيطان!

وفي سورة آل عمران، يُحذّر - سبحانه - من أولئك المتطاولين على الفتوى من ذوي القلوب المريضة، الذين يتخبّطون ويتبعون المتشابهة من كتاب الله، فيلبسُون على الناس، وتزيغ قلوبهم طلباً للفتنة. أما الراسخون في العلم فيعلمون التأويل والتفسير، ويستنبطون الأحكام والهدايات عن علم وبصيرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال البغوي في تفسيره: «قوله تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أَي الدَّاخِلُونَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ اتَّقَنُوا عِلْمَهُمْ؛ بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ فِي مَعْرِفَتِهِمْ شَكٌّ، وَأَصْلُهُ مِنْ رُسُوحِ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ وَهُوَ ثُبُوتُهُ، يُقَالُ: رَسَخَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِ فُلَانٍ يَرْسُخُ رُسْخًا وَرُسُوحًا.

وَسُئِلَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، قَالَ: الْعَالِمُ الْعَامِلُ بِمَا عِلْمُ الْمُتَّبِعِ لَهُ.

وَقِيلَ: الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ مَنْ وَجَدَ فِي عِلْمِهِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ: التَّقْوَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَالتَّوَاضُّعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَالزُّهْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، وَالْمُجَاهَدَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ»^(١).

وقال ابن عاشور في تفسيره: «المُرَادُ بِالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: الَّذِينَ تَمَكَّنُوا فِي عِلْمِ الْكِتَابِ، وَمَعْرِفَةِ مَحَامِلِهِ، وَقَامَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ مَا أَرَشَدَهُمْ إِلَى مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى؛ بِحَيْثُ لَا تَرْوِجُ عَلَيْهِمُ الشُّبْهَةُ. وَالرُّسُوحُ

(١) معالم التنزيل، البغوي، (٢/١٠-١١).

في كلام العرب: الثَّباتُ والتَّمكنُ في المكانِ، يُقالُ: رَسَخَتِ الْقَدَمُ تَرَسُّخًا رُسُوخًا إِذَا ثَبَتَتْ عِنْدَ الْمَشْيِ وَلَمْ تَتَزَلَّزَلْ، وَاسْتُعِيرَ الرُّسُوخُ لِكَمالِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ بِحَيْثُ لَا تُضِلُّهُ الشُّبُهَةُ، وَلَا تَتَطَرَّقُهُ الْأَخْطَاءُ غَالِبًا، وَشَاعَتْ هَذِهِ الْإِسْتِعَارَةُ حَتَّى صَارَتْ كَالْحَقِيقَةِ. فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الثَّابِتُونَ فِيهِ، الْعَارِفُونَ بِدَقَائِقِهِ، فَهَمَّ يُحَسِّنُونَ مَوَاقِعَ التَّأْوِيلِ وَيَعْلَمُونَهُ»^(١).

وقال ابن القيم في تفسيره: «أصلُ خرابِ الدِّينِ والدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَمْ يَرِدْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِكَلَامِهِ، وَلَا دَلٌّ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُرَادُهُ، وَهَلِ اخْتَلَفَتِ الْأُمَمُ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ وَهَلْ وَقَعَتْ فِي الْأُمَّةِ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ أَوْ صَغِيرَةٌ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ فَمِنْ بَابِهِ دَخَلَ إِلَيْهَا، وَهَلْ أَرِيقَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفِتَنِ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟

وَلَيْسَ هَذَا مُخْتَصًّا بِدِينِ الْإِسْلَامِ فَقَطْ، بَلْ سَائِرُ أَدْيَانِ الرُّسُلِ لَمْ تَزَلْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ حَتَّى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١٦٤/٣).

دَخَلَهَا التَّأْوِيلُ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْبِشَارَاتُ بِصِحَّةِ نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَكِنْ سَلَطُوا عَلَيْهَا التَّأْوِيلَاتِ فَافْسَدُوهَا، كَمَا أَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- عَنْهُمْ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْكِتْمَانِ، فَالتَّحْرِيفُ تَحْرِيفُ الْمَعَانِي بِالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرُدَّهَا الْمُتَكَلِّمُ بِهَا، وَالتَّبْدِيلُ تَبْدِيلُ لَفْظٍ بِلَفْظٍ آخَرَ، وَالْكِتْمَانُ جَحْدُهُ.

وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ الثَّلَاثَةُ مِنْهَا غَيَّرَتِ الْأَدْيَانَ وَالْمِلَلَ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ دِينَ الْمَسِيحِ وَجَدْتَ النَّصَارَى إِنَّمَا تَطَرَّقُوا إِلَى إِفْسَادِهِ بِالتَّأْوِيلِ بِمَا لَا يَكَادُ يُوجَدُ قَطُّ مِثْلُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَدْيَانِ، وَدَخَلُوا إِلَى ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ.

وَكَذَلِكَ زَنَادِقَةُ الْأُمَمِ جَمِيعُهُمْ إِنَّمَا تَطَرَّقُوا إِلَى إِفْسَادِ دِيَانَاتِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ بِالتَّأْوِيلِ، وَمِنْ بَابِهِ دَخَلُوا، وَعَلَى أَسَاسِهِ بَنَوْا، وَعَلَى نَقْطِهِ خَطُّوا.

والمُتَأَوِّلُونَ أَصْنَافٌ عَدِيدَةٌ، بِحَسَبِ الْبَاعِثِ لَهُمْ عَلَى التَّأْوِيلِ، وَبِحَسَبِ قُصُورِ أَفْهَامِهِمْ وَوُفُورِهَا، وَأَعْظَمُهُمْ تَوَغُّلاً فِي التَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ، مَنْ فَسَدَ قَصْدُهُ وَفَهْمُهُ، فَكَلَّمَا سَاءَ قَصْدُهُ وَقَصُرَ فَهْمُهُ كَانَ تَأْوِيلُهُ أَشَدَّ انْحِرَافًا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تَأْوِيلُهُ لِنَوْعِ هَوَى مِنْ غَيْرِ شُبْهَةٍ، بَلْ يَكُونُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ الْحَقِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تَأْوِيلُهُ لِنَوْعِ شُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ أَخَفَّتْ عَلَيْهِ الْحَقُّ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ تَأْوِيلُهُ لِنَوْعِ هُدًى مِنْ غَيْرِ شُبْهَةٍ، بَلْ يَكُونُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ الْحَقِّ) وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْتَمِعُ لَهُ الْأَمْرَانِ: الْهَوَى فِي الْقَصْدِ وَالشُّبْهَةُ فِي الْعِلْمِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَافْتِرَاقُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَافْتِرَاقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً إِنَّمَا أَوْجَبَهُ التَّأْوِيلُ، وَإِنَّمَا أَرِيقَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ وَالْحَرَّةِ وَفِتْنَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهَلُمَّ جَرًّا بِالتَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا دَخَلَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُتَفَلِّسَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَالنُّصَيْرِيَّةِ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ، فَمَا امْتَحَنَ الْإِسْلَامُ بِمِحْنَةٍ قَطُّ إِلَّا وَسَبَّبَهَا التَّأْوِيلُ؛ فَإِنَّ مِحْنَتَهُ

إِمَّا مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ، وَإِمَّا أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ بِسَبَبِ
مَا ارْتَكَبُوا مِنَ التَّأْوِيلِ وَخَالَفُوا ظَاهِرَ التَّنْزِيلِ وَتَعَلَّلُوا
بِالْأَبَاطِيلِ، فَمَا الَّذِي أَرَأَى دِمَاءَ بَنِي جَدِيْمَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا
غَيْرَ التَّأْوِيلِ حَتَّى رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَتَبَرَّأَ إِلَى
اللَّهِ مِنْ فِعْلِ الْمُتَأَوِّلِ بِقَتْلِهِمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ؟ وَمَا الَّذِي
أَوْجَبَ تَأْخُرَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَنْ مُوَافَقَةِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ التَّأْوِيلِ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُهُ
لِتَأْخُرِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِ حَتَّى رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا
الَّذِي سَفَكَ دَمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا
وَأَوْقَعَ الْأُمَّةَ فِيهَا أَوْقَعَهَا فِيهِ حَتَّى الْآنَ غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟
وَمَا الَّذِي سَفَكَ دَمَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَابْنِهِ الْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا الَّذِي أَرَأَى دَمَ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ
وَأَصْحَابِهِ غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا الَّذِي أَرَأَى دَمَ ابْنِ الزُّبَيْرِ
وَحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَادَاتِ
الْأُمَّةِ غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا الَّذِي أُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاءُ الْعَرَبِ
فِي فِتْنَةِ أَبِي مُسْلِمٍ غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا الَّذِي جَرَّدَ الْإِمَامَ
أَحْمَدَ بَيْنَ الْعِقَابَيْنِ وَضُرِبَ السَّيَاطُ حَتَّى عَجَّتِ الْحَلِيقَةُ
إِلَى رَبِّهَا تَعَالَى غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا الَّذِي قَتَلَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ

ابْنَ نَصْرِ الْخُزَاعِيِّ وَخَلَدَ خَلْقًا مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي السُّجُونِ
حَتَّى مَاتُوا غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَمَا الَّذِي سَلَّطَ سُيُوفَ التَّارِ
عَلَى دَارِ الْإِسْلَامِ حَتَّى رَدُّوا أَهْلَهَا غَيْرَ التَّأْوِيلِ؟ وَهَلْ
دَخَلَتْ طَائِفَةُ الْإِلْحَادِ مِنْ أَهْلِ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ إِلَّا مِنْ
بَابِ التَّأْوِيلِ»^(١).

وبعد، فإن العلم الشرعي كغيره من العلوم له
رجاله المختصون، بل أرى أنه أهم العلوم، فدينُ
الأمّة أولاً؛ لا يتخبّط فيه مُتخبّط، ولا يهذي فيه هاذٍ،
يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولأهمية العلم الشرعي؛ قرن الحق - سبحانه -
شهادته وملائكته، بشهادة أولي العلم ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، (٤/٢٥٠-٢٥١)، وانظر: تفسير ابن
القيم، سورة آل عمران، الآية: ٧.

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «فِي هَذِهِ
الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ وَشَرَفِ الْعُلَمَاءِ وَفَضْلِهِمْ،
فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ أَشْرَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ لَقَرَنَهُمُ اللَّهُ بِاسْمِهِ
وَاسْمِ مَلَائِكَتِهِ كَمَا قَرَنَ اسْمَ الْعُلَمَاءِ. وَقَالَ فِي شَرَفِ
الْعِلْمِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فلو كان شيء
أَشْرَفَ مِنَ الْعِلْمِ لَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ
يَسْأَلَهُ الْمَزِيدَ مِنْهُ كَمَا أَمَرَ أَنْ يَسْتَزِيدَهُ مِنَ الْعِلْمِ.
وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(١). وَقَالَ:
«الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ»^(٢). وَهَذَا شَرَفٌ لِلْعُلَمَاءِ
عَظِيمٌ، وَمَحَلٌّ لَهُمْ فِي الدِّينِ خَطِيرٌ»^(٣).

ويُخَصُّ -سبحانه- العلماء الراسخين في العلم
بالذكر، وسَمَّاهم الراسخين، فقال: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي
الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في باب العلم قبل القول والعمل (٧١/١)،
وأحمد (٤٥٠/٣٦) ٤٦-٤٥، وصححه ابن الملقن في البدر المنير
(٥٨٧/٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧/١ رقم ٧٠).
(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٠٠/١ رقم ١١٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، (٤١/٤).

وقد علم العلماء ذوو القلوب الراسخة بعظمة كتاب الله؛ ولهذا تراهم يخشعون، وتهتزُّ قلوبهم لسماع تلاوة كتاب الله، فيخرون سُجَّدًا لله؛ ذلةً وطمعاً في رحمته وعفوه ومغفرته.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ؕ وَلَا تُؤْمِنُوا إِنَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِقَانِ سَجْدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

ويتميز أهل العلم بحفظ كتاب الله، فنالت أجسادهم شرف الذكر الرباني بما احتوته صدورهم من نور وبيان ﴿بَلْ هُوَ آيَتٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ولا يتردد أولو العلم الذين فتح الله عليهم في معرفة الحق والدعوة إليه ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦].

ويقصرُ الحق - سبحانه - خشيته دون سواه على العلماء ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ويقرر سبحانه رَفْعَةَ حَمَلَةِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ
أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وبعدُ يا عبدَ الله، هذا كلامُ الله المُعْجِزِ اعرضْ
نفسَكَ عليه كل حين، وافحصْ نفسك معه، وانظر كيف
أنت! وفي أي درجةٍ عند الله تُرفعُ بعلمِكَ، وما مؤشرات
رسوخ العلم لديك؟ حينها ستعرف النتيجة حين تعرض
نفسَكَ على جهازِ الفحصِ القرآني الدقيق.

اقرأ القرآن وتأمل وتفكر، فقد أورد -سبحانه-
التَّفَكُّرَ في معرض المدح، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ
ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي
الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

تفكَّرْ في صُنْعِ الله تَتَلَّ ثَنَاءَهُ وَرِضَاهُ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ
آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَفَانِ تَقْبَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ

مَثَلِيهِمْ رَأَى أَلْعَيْنَ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بَصِيرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ
لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿[آل عمران: ١٣]﴾.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

وذمَّ - سبحانه - المعرضين عن التفكير، فقال: ﴿وَكَأَيِّنْ
مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾
[الأعراف: ١٧٩].



مفتاح السعادة

مَنْ مَنَّا لَا يرغب في الحياة السعيدة؟ كل البشر مهما كانت دياناتهم ينشدون السعادة. فحين صدر كتاب ديل كارنيغي (دع القلق وابدأ الحياة) ، تهافت الناس على شرائه وقراءته، وتُرجم إلى عدّة لغات منها اللغة العربية. قال أحد المثقفين عنه: إن لم تكن قد قرأته فضع ما بيدك جانباً وابدأ قراءته الآن! كتاب سيغير طريقة تفكيرك للأبد، ويجعل الحياة أسهل وأكثر مرونة.

حين سافر الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ إلى بيروت للعلاج قرأ الكتاب، وأحضر نسخة منه، وأوصى بقراءته.

وأقول: أجملُ من ذلك الكتاب وأوثق، وأحلى وأصدق من كلِّ ما كُتب، ومن كلِّ ما قيل حول السعادة في الدنيا

والتخلص من القلق والضغط والتوتر، أطيب من ذلك كله، عدد من الآيات القرآنية تجلب السعادة، افهمها، قف معها وقفات، تدبر وتفكر؛ تعيش السعادة الفعلية، وتشعر بالطمأنينة في نفسك وحياتك ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

اصدق في إيمانك، واعمل صالحًا تحيا وتعش حياة رخيئة سعيدة، عبّر القرآن عنها بـ (طيبة). ولكلمة (طيبة) إحياءاتها؛ اللين، والرخاوة، والبهجة، والرائحة الزكية، النضارة، وكل صفات السعادة.

إن كنت مهمومًا وقلقًا وضائقًا صدرك، فبادر نحو القرآن، وتأمل آيات السعادة، وافحص نفسك معها!

كل القرآن سعادة، وستجد في بعض الآيات سلوتك، وتلق بها راحتك، فبادر واعمل بها!

اقرأ أول سورة هود وتدبرها وتمعن في ما استنبطه علماء التفسير منها، يقول تعالى: ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمْتُ إِلَهُهُ ثُمَّ

فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ
 أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ
 فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٌ ﴿٤﴾ [هود: ١-٤].

أخي في الله، أخي في الله، مَنْ مَنَّا لَا يَوَدُّ الْمَتَاعَ
 الْحَسَنَ فِي دُنْيَاهُمْ؟ قال علماء التفسير: أَكْثَرَ مِنْ اسْتِغْفَارِ
 اللَّهِ وَتَوْبَتِهِ تَعَشَّرَ حَيَاةً سَعِيدَةً وَمَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلِكَ
 الْمَكْتُوبِ. ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

إِنْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِرْشَادًا وَبَيَانًا لِلْسَعَادَةِ؛ فَهَيَّا قَفْ
 وَاقْرَأْ وَتَدَبَّرِ الْوَعْدَ الرَّبَّانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ
 مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
 يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]. لَيْسَ هُنَاكَ أَوْثَقُ وَلَا أَصْدَقُ وَلَا أَحَبُّ
 مِنْ هَذَا الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ الْمَشْرُوطِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ!
 إِنَّهَا السَّعَادَةُ الْقَادِمَةُ وَالْوَعْدُ السَّارُّ وَالْيَقِينُ الْمُتَحَقِّقُ،
 وَوَاللَّهُ، وَتَاللَّهُ، وَبِاللَّهِ إِنَّهَا السَّعَادَةُ وَالبَهْجَةُ، فَهَيَّا نُسَمِّرُ
 عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَهْمَا كَانَ!

فتدارك نفسك من الوقوع في الخطأ، ولا تقنط من
رحمة الله، وتمضي في دُرُوب الغواية ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ
رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

إن أسرفت ونسيّت ومضيّت وراء شهواتك فلا تقنط،
بل عُدْ إلى ربِّ عفوّ كريم ينتظرك، فلا تيأس ولا تستعظم
ذنوبك؛ ففعوه أعظم، وكرمه أوسع وأشمل ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ
الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ
هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٢].

ستحاسبُ على سيئاتك، وقد يمحوها الله - سبحانه -
إذا تداركت نفسك.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[غافر: ٤٠].

إنه القرآن مصدرُ السَّعادة، فلذِّ به، واجعله أنيسك
وسلوّتك!



مقياس محبة الله

ما من شخص إلا ويرجو أن يكون محبوباً عند الله.
فالحُبُّ الإلهي غايةٌ عظُمى، وهدفٌ أسمى وعظيمٌ،
نرجو الفوز به جميعاً، والحبُّ الربَّاني أغلى أنواع الحب؛
أثمنُ من حبِّ الوالدين، وأعزُّ من حبِّ الزوجة، وأهمُّ
من كل حبٍّ عرفه البشر أو لم يعرفوه. وكيف تعرف
أن الله يحبُّ؟ هل يمكن ذلك، والله غيبٌ لا يمكن أن
نراه أو نكلِّمه في دنيانا؟! هو يرانا ولا نراه، وفي الآخرة
يفوزُ عباده المؤمنون برضاه وجنته، ويكلِّمهم ويراهم
ويرونه ﴿وَجْهٌ يُؤْمَدِرُ نَاصِرَةٌ ۖ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

افتح المصحف تعرف طريق المحبة.

اتَّبِعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبِّكَ اللَّهُ، واتباع رسول
الله يَتِمُّ بتصديقه فيما جاء به، والعمل بما أمر به،
واجتناب ما نهى عنه، إن فعلت ذاك أَحَبَّكَ اللَّهُ ﴿قُلْ إِنْ
كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[آل عمران: ٣١].

والله -سبحانه- يحبُّ الإحسان، وقد تكرر الآيات
حول محبة الله للإحسان، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]. فهل
أنت محسنٌ في نفسك؟ وهل تحسن للآخرين؟ سل
نفسك لتعرف مقياس محبة الله لك، وتجد حلاوته في
قلبك، ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[آل عمران: ١٤٨]. ورغب -سبحانه- في العفو والصفح،
وذلك إحسان يحبُّه الله، فهل أنت ممن يتحمل ويصفح
ويتجاهل الإساءة، ويتناسى زلة القريب، وهفوة
الصديق، وخطأ الجار؟

هل تصفح عنهم ابتغاء مرضات الله؟ ﴿فَاعْفُ
عَنَّهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]. والإنفاق

والصدقة إحسان، وكظم الغيظ إحسان، والعفو إحسان، وكل تلك الأعمال يحبها الله ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. إذن، فلتعرف محبة الله لك، ولتنظر لنفسك ومحبتك للإحسان الذي يحبه الله.

والله يحب الطهارة والمُتَطَهِّرِينَ، فهل أنت من أهل الطهارة والنقاوة الحسية والمعنوية؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. إن كانت الطهارة سجيَّتِكَ وهواك وحُبِّكَ فاعلم أن الله يحبُّكَ!

وفي سورة التوبة يردُّ ذكر المُتَطَهِّرِينَ في سياق ذكر المسجد؛ إذ يرتبط المسجد بالوضوء والطهارة الحسّية والمعنوية، ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. فالله -سبحانه- مُحِبٌّ للمُتَطَهِّرِينَ، فهل أنت مُحِبٌّ للمساجد التي يغشاها المُتَطَهَّرُونَ؟ تأنسُ بالجلوس فيها، والخلوة مع كتاب الله في رحابها الطاهرة؟

سَلِّ نَفْسَكَ كُلَّ يَوْمٍ وَافْحَصْهَا؛ هَلْ أَنْتَ تَسَارِعُ
لِلْمَسَاجِدِ طَاهِرًا مُتَطَهِّرًا لِأَدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؟
إِنْ كُنْتَ ذَاكَ الرَّجُلُ فَاعْلَمْ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ لَكَ، زَادَكَ اللَّهُ
طَهَارَةً وَنِقَاءً.

وكيف أنت مع مقياس التقوى وصُحْبَتِهَا والتخلقِ بها؟ ﴿يَا مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. وقد بين القرآن الكريم وعَرَّفَ المتقين الذين يُحِبُّهم الله - جعلنا منهم - فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[البقرة: ١-٥].

فهل يا ترى أنت من هؤلاء المتقين المؤمنين بالغيب، والمقيمي الصلاة، والمنفقين، والمؤمنين بما أوحى الله إلى رسله؟! إن كنت كذلك فقد فُزْتَ بمحبةِ الله، فاللهُ يحبُّ المتقين.

وكذلك فإن الصبر شأنه عظيم، والله يحب الصابرين، فما مقياسك في الصبر على اجتناب

محارم الله، والصبر على أداء العبادات، والصبر على الابتلاء، والجهاد والإنفاق في سبيل الله؟ وأين تضع نفسك من هذا الصبر بتنوعاته المختلفة؛ لتفوز بمحبة الله؟ ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وهل تستحق الفوز بنتيجة الصبر بعد فحص نفسك مع هذا الخلق، كما أورده القرآن ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وكيف أنت والعدل؟ فالله يُحِبُّهُ، وقد كرَّرَ -سبحانه- في آياته حُبَّه للمقسطين، فإذا نزغ الشيطان بين طائفتين من المؤمنين، فأصلحوا بينهما بالعدل والقسط، وإياكم والجور، فالله يُحِبُّ العدل الذي هو القسط.

﴿وَلِإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

والله يمقتُ الظلمَ ويأمر بالقسط والعدل حتى مع
المخالفين في الدين، قال تعالى ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ
يُقِنُّوْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوْكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

«قال المفسرون: وهذه الآية رُحْصَةٌ في صِلَةِ الَّذِينَ
لَمْ يَنْصِبُوا الْحَرْبَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَوَّازِ بَرِّهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ
الْمُؤَالَاةُ مُنْقَطِعَةً مِنْهُمْ وَأَنْ تُعَامِلُوهُمْ بِالْعَدْلِ فِيمَا
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ»^(١).

هذا منهج قرآني كشف الله به محبته للمتخلفين
بتلك الصفات؛ ولهذا إن كنت تشدُّ محبة الله، فكن
من أولئك، ولكي تفحص نفسك ومحبة الله لك؛ دقق
أين أنت، وقس نفسك مع هذه الآيات التي بين الله فيها
عوامل تحقق حبه ومحبه، وكسب رضاه؛ لتعيش آمناً
مطمئناً محبباً محبوباً، وإن لم تكن كذلك ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٧/٨).

مَفَرُ الْجَنَّةِ

يعيش بعضُ المسلمين أوضاعًا اجتماعية واقتصادية صعبة، ويتعرض آخرون لمآسي وآلام، تدفع للسخرية من دينهم، فتهتز عقائد ثلَّةٍ منهم، ويَصْبِرُ ذوو العقائد السليمة الذين قرؤوا القرآن، واطمأنوا إليه، وعلموا حقيقة الإيمان، وأن مهر الجنة غالٍ.

قال الحسن البصري: «يسيرُ اليقين يُخْرِجُ الشكَّ كُلَّهُ من القلب، ويسيرُ الشكُّ يُخرجُ اليقين منه!»^(١).
احذر الشكَّ ووسوسة الشيطان، وعندما ترى واقع المسلمين وما يتعرضون له من ابتلاءات، وقد تكون

(١) البداية والنهاية: (١٤/٣٥٨).

واحدًا من أولئك المُبْتَلَيْنِ، فافتح كتاب الله الكامل
تجد فيه الدواء والسلوة.

عندما ترتبك وتهتز نفسيّتك افتح المصحف
وافحص نفسك مع آيات الصبر والابتلاء، وانظر أين
أنت؟

لقد أخبر سبحانه: أمة الاسلام بأن مهر الجنة،
وهي مُبتغاهم، غالٍ، وأن درب الخير يلزمه الصبر
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسَّهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرَزُلُوا عَنْ رُسُلِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى
نَصْرُ اللَّهِ إِلَّا الْآخِرُ أَنْ نَصْرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

مما ذكره ابن عثيمين عند تفسيره لهذه الآية، قال:
* «يستفاد من هذه الآية الكريمة: عناية الله عزَّجَلَّ
بهذه الأمة؛ حيث يسليها بما وقع بغيرها، وهكذا
كما جاء في القرآن جاء في السنة، فالرسول
عليه الصلاة والسلام لما جاء أصحابه يشكون إليه في
مكة أخبرهم بأن من كان قبلنا يوضع المنشار

على رأسه، ويمشط به ما بين لحمه وعظمه، ثم لا يرده ذلك عن دينه؛ تشبيهاً للمؤمنين.

عن خباب بن الأرت: شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

* ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، ما تقول: أنا مؤمن، أدخل الجنة، لا، لا بد من إصابة.

(١) أخرجه البخاري (١٤١/٩) رقم (٣٦١٢).

* ويستفاد من هذه الآية الكريمة: حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يبتلي المؤمنين بمثل هذه المصائب العظيمة امتحاناً حتى يتبين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّعِيفِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

أظننا لا نعرف زيف الذهب إلا إذا أذناه بالنار، ولا نعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار، أيضاً ما يعرف المخلص إلا بالامتحان والابتلاء، فعليك يا أخي بالصبر، قد تؤذى على دينك، قد يستهزأ بك، وربما تلاحق، وربما تُراقب، ولكن اصبر واصدق، اصبر وانظر إلى ما حصل لأولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان ساجداً لله في آمن بقعة على الأرض، ساجداً ما آذى أحداً ولا شيئاً، في آمن بقعة على الأرض، وهو المسجد الحرام، فيأتي طغاة البشر، يأتون بالأذى والقذر؛ سلا الناقة يضعونه عليه وهو ساجد، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا أمر عظيم، يعني: ما يصبر عليه إلا أولو العزم، ويبقى ذلك حتى تأتي ابنته الصغيرة فاطمة تزيله عن ظهره، فيبقى القوم يضحكون ويقهقهون.

أنا أعتقد أن الإنسان نفسياً إلا من عصمه الله وثبَّته، سيمَل، يتعب، يقول: لِمَ يُفَعِّلُ بي هذا؟ وعلى الأقل يختفي دينه، لكن اصبر واحتسب، واعلم أنه مهما كان الأمر، غاية ما هنالك الموت، وإذا متَّ على الصبر في الله عَزَّجَلَّ انتقلت من دار إلى خير منها، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]. لا تكن هكذا، اصبر واحتسب، واعلم بأن ﴿اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التحل: ١٢٨]، وأن الله مع الصابرين، وأن لك أقواماً من إخوانك يرقبون ما يحصل منك، فإذا صبرت شجعتهم وصبرتهم، وتعلمون أن الأمة أفراد، إذا صلح فردٌ وفردٌ وفردٌ وفردٌ كَوْنُوا أُمَّةً. الركِيَّة هي البئر إذا طاح منها واحد من حصاها اختلت ويطيح الجميع، فالمهم أن الله عَزَّجَلَّ يسلي المؤمنين بمثل هذا، ويخبر أنه أصاب من قبلنا، أصابهم بأساء؛ قِلَّةُ مال، وإعواز عظيم؛ فقر، ومضرة في أبدانهم، يُضْرَبُونَ، ويجرحون، وربما يقتلون كما كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء بغير حق، وتأتيهم المخاوف العظيمة وزلزلوا.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن لا يسأل النصر إلا من القادر عليه وهو الله؛ لقوله: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ويستفاد من ذلك: فضيلة اتباع الرسل؛ لقوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، يتفقون على هذه الكلمة التي فيها استدعاء النصر ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾.

ويستفاد من هذه الآية: تمام قدرة الله عزَّجَل؛ لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ويستفاد منها: حكمة الله؛ حيث يمنع النصر لمدة معينة من الزمن مع أنه قريب ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الصبر على البلاء في ذات الله عزَّجَل من أسباب دخول الجنة؛ لأن معنى الآية: اصبروا حتى تدخلوا الجنة.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»؛ لأن هذه مكاره، ولكنها هي الطريق إلى الجنة.

ويستفاد من الآية الكريمة: أنه لا وصول إلى الكمال إلا بعد تجرع كأس الصبر، وهو من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى آخره.

ويستفاد من الآية الكريمة أيضاً: إثبات الجنة؛ لقوله: ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، وقد سبق أن مآل الخلق إلى دارين لا ثالث لهما: إما الجنة، وإما النار. فالجنة للمتقين، والنار للكافرين»^(١).

وفي سورة آل عمران نقراً قول الحق - سبحانه - في الابتلاء والصبر ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم

(١) تفسير ابن عثيمين، سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تتقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١).

هذا، ويغفل كثيرون عن تدبر الآيات التي افتتح الله بها سورة العنكبوت ﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿[العنكبوت: ١-٢]﴾، وربما قرؤوا السورة كاملة دون توقف وتدبر، كما أمرهم الله ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبُوا عَائِيَهُ وَلِيَذْكُرُوا وَلِيُؤْمِنُوا بِالْآلِيبِ﴾ [ص: ٢٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٩٦).

إن الله - سبحانه - يخبرنا في كتابه الكامل: أن
مهر الجنة ثمين، وليس بالهين، فلجنة عمل وامتحان،
وتمحيص وابتلاء، فالصبر الصبر.

وقد أطنب عددٌ من علماء التفسير عند تناولهم
هذه الآيات في سورة العنكبوت؛ فمما قاله الزمخشري
في تفسيره: «الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف؛ من
مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات
الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط،
وأنواع المصائب في الأنفس والأموال. وبمصابرة
الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم. والمعنى: أحسب
الذين أجروا كلمة الشهادة على أسنتهم وأظهروا
القول بالإيمان: أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل
يمحنهم الله بضروب المحن، حتى يبلى صبرهم، وثبات
أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونُصوع نياتهم، ل يتميز
المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من
المضطرب، وال متمكن من العابد على حرف، كما قال:
﴿تُجَلَّوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا

وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جزعوا من أذى المشركين. وقيل في عمار بن ياسر: وكان يُعَذَّب في الله. وقيل: في ناسٍ أسلموا بمكة، فكتب إليهم المهاجرون: لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا فاتبعهم المشركون فردّوهم، فلما نزلت كتبوا بها إليهم، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم؛ فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا. وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة، فجعز عليه أبواه وامراته، وقد امتحن من هو خير منه، يعني: أن أتباع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام قبلهم، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم. أو ما هو أشدّ منه فصبروا، كما قال: ﴿وَكَايِن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا﴾ الآية^(١).

(١) الكشف، الزمخشري، (٤/٥٢٣-٥٢٤).

ومما قاله ابن القيم في تفسيره لهذه الآية:

﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

[العنكبوت: ١-٣] «لِيَتَأَمَّلِ الْعَبْدُ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ

مِنَ الْعِبَرِ وَكُنُوزِ الْحِكَمِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

الرُّسُلُ بَيَّنَّ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: آمَنَّا، وَإِمَّا

أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ، فَمَنْ

قَالَ: آمَنَّا اِمْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ، وَالْفِتْنَةُ الْإِبْتِلَاءُ

وَالْإِخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَنْ لَمْ يَقُلْ

آمَنَّا فَلَا يَحْسِبُ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللَّهَ وَيُفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ، فَإِنَّهُ

إِنَّمَا يَطْوِي الْمَرَا حِلَ فِي يَدَيْهِ.

فَمَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَأَذَوْهُ

فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ وَلَمْ يُطْعَمْ عَوْقَبَ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ، وَكَانَ هَذَا

الْمُؤْلِمُ لَهُ أَعْظَمُ أَلَمٍ وَأَذَوْمٍ مِنَ أَلَمِ اتِّبَاعِهِمْ، فَلَا بُدَّ

مِنْ حُصُولِ الْأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الْإِيمَانِ،

لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمُ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً، ثُمَّ تَكُونُ

لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ
تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَّةُ ابْتِدَاءً، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْأَلَمِ الدَّائِمِ.

وَسُئِلَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيُّمَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ، أَنْ يُمَكِّنَ
أَوْ يُبْتَلَى؟ فَقَالَ: لَا يُمَكِّنُ حَتَّى يُبْتَلَى، وَاللَّهُ تَعَالَى ابْتَلَى
أُولِي الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ، فَلَا يَظُنُّ
أَحَدٌ أَنَّهُ يَخْلُصُ مِنَ الْأَلَمِ الْبَتَّةَ، وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُ أَهْلُ الْأَلَامِ
فِي الْعُقُولِ، فَأَعْقَلُهُمْ مَنْ بَاعَ أَلَمًا مُسْتَمِرًّا عَظِيمًا بِأَلَمٍ
مُنْقَطِعٍ يَسِيرٍ، وَأَشْقَاهُمْ مَنْ بَاعَ الْأَلَمَ الْمُنْقَطِعَ الْيَسِيرَ
بِالْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمِرِّ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَخْتَارُ الْعَاقِلُ هَذَا؟ قِيلَ: الْحَامِلُ لَهُ
عَلَى هَذَا النَّقْدِ وَالنَّسِيئَةِ، وَالنَّفْسُ مُوَكَّلَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ.

﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) ﴿وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، ﴿إِنْ
هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]. وَهَذَا
يَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَدْنِيٌّ بِالطَّبْعِ، لَا بُدَّ لَهُ
أَنْ يَعْيشَ مَعَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ،
فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا، فَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ

وَعَذُّبُهُ، وَإِنْ وافَقَهُمْ، حَصَلَ لَهُ الْأَذَى وَالْعَذَابُ، تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَنْ عِنْدَهُ دَيْنٌ وَتَقَى حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ، وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بِمُوافَقَتِهِ لَهُمْ، أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ، فَإِنْ وافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الْإِبْتِدَاءِ، ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى أَضْعَافَ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ، وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ، فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ لِمَعَاوِيَةَ: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(١).

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ رَأَى هَذَا كَثِيرًا، فِيمَنْ يُعِينُ الرُّؤُسَاءَ عَلَى أَغْرَاضِهِمِ الْفَاسِدَةِ، وَفِيمَنْ يُعِينُ أَهْلَ الْبِدْعِ عَلَى بَدْعِهِمْ؛ هَرَبًا مِنْ عُقُوبَتِهِمْ، فَمَنْ هَدَاهُ

(١) أخرجه الترمذي (٦٠٩/٤ رقم ٢٤١٤)، وصححه ابن حبان (١/٥١٠) رقم ٢٧٦)، وصححه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١١٩)، والألباني في الصحيحة (٣٩٢/٥ رقم ٢٣١١).

اللَّهُ وَالْهَمَّهُ رُشْدُهُ وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ اِمْتَنَعَ مِنَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ، وَصَبَرَ عَلَى عُدْوَانِهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وَاتِّبَاعِهِمْ كَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَمَنْ ابْتُلِيَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ وَصَالِحِي الْوَلَاةِ وَالتُّجَّارِ، وَغَيْرِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ الْأَلَمُ لَا مَحِيصَ مِنْهُ الْبَيْتَةُ، عَزَى اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- مَنْ اخْتَارَ الْأَلَمَ الْيَسِيرَ الْمُنْقَطِعَ عَلَى الْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمِرِّ، بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، فَضَرَبَ لِمُدَّةِ هَذَا الْأَلَمِ أَجَلًا، لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ، وَهُوَ يَوْمُ لِقَائِهِ، فَيَلْتَذُّ الْعَبْدُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ بِمَا تَحْمَلُ مِنَ الْأَلَمِ مِنْ أَجَلِهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ، وَتَكُونُ لَذَّتُهُ وَسُرُورُهُ وَابْتِهَاجُهُ بِقَدْرِ مَا تَحْمَلُ مِنَ الْأَلَمِ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ، وَأَكَّدَ هَذَا الْعِزَاءَ وَالتَّسْلِيَةَ بِرَجَاءِ لِقَائِهِ لِيَحْمَلَ الْعَبْدُ اشْتِيَاقَهُ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ وَوَلِيِّهِ عَلَى تَحْمُلِ مَشَقَّةِ الْأَلَمِ الْعَاجِلِ، بَلْ رُبَّمَا غَيَّبَهُ الشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ عَنْ شُحُودِ الْأَلَمِ وَالْإِحْسَاسِ بِهِ، وَلِهَذَا سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِهِ، فَقَالَ فِي الدُّعَاءِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ

وَابْنُ حَبَّانَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَى، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَى بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زِينًا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»^(١).

وقال ابن القيم كذلك: «الفتنة كير القلوب، ومحكُّ الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فِتْنَتَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢]».

(١) أخرجه النسائي في الصغرى (٥٤/٣ رقم ١٢٠٥)، والحاكم (٧٠٥/١) رقم ١٩٢٣، وصححه ابن حبان (٣٠٤/٥ رقم ١٩٧١)، والألباني في صحيح الجامع (رقم ١٣٠١).

فالفتنة قسّمت الناس إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ
ومنافقٍ، وطيبٍ وخبيثٍ. فمن صبر عليها كانت رحمة
في حقّه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن
لم يصبر عليها وقع في فتنةٍ أشدّ منها^(١).

وبعد، فمائدةُ القرآن الكريم شفاءٌ ونور، وهدايةٌ
وطُمأنينة، فاجعلِ المصحف أنيسَكَ وسلوتَكَ وجليسَكَ
وصاحبَكَ!



(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، (ص ١٣١-١٣٢).

ميزان النفقة

القرآن يأمرُك أن تكونَ متَّزناً في نفقتك وفي كلِّ أمورِك ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فكيف أنت وهذا المجال؟ هل أنت مُسرفٌ للمال مُبذرٌ، أم أنت شحيحٌ بخيلٌ تؤذي نفسك وزوجتك وأولادك وتحرمُ أسرتك الاستمتاعَ بزينَةِ الحياة الدنيا التي أعطاكها الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهل أنت تُسارعُ للإنفاق في وجوه الخير، أم أن نفقتك في ملذَّات الدنيا وبهجتها؟ تنبَّه وتذكَّر الأبقى

لك والأنفع، عن عائشة أم المؤمنين: أَهْدِيَ لَنَا شَاةً
مَشْوِيَةً، فَقَسَمْتُهَا إِلَّا كَتِفَهَا، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «بَقِيَ لَكُمْ إِلَّا كَتِفُهَا»^(١).

احرص على ما ستجده أمامك، لا ما سوف تتركه
خلفك.

افحص نفسك دومًا مع نفقة الصدقة، وتذكر
أن القرآن مليءٌ بآيات الترغيب في الإنفاق، واخلُ
بنفسك، وافتح المصحف وتوقف مليًا عند آيات
النفقة، واستعرض إنفاقك طالما فيك نفسٌ يتردد،
واقرا قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ
أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ
الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

بعد قراءتك هذه الآية، هل ترغب أن تكون ذاك
الرجل الذي يستغيث ربّه بعد الموت، ويتمنى العودة

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٨٦/٤٠ رقم ٢٤٢٤٠)، وصححه الترمذي (٦٤٤/٤) رقم ٢٤٧٠، والألباني في الصحيحة (٩٧/٦ رقم ٢٥٤٤).

للدنيا؛ لا شيء سوى أن يعود لماله الذي تقاسمه
الورثة ويتصدق منه؟ تنبه الآن، الآن!

إي والله، هو القرآن خيرٌ مُخبرٍ وخيرٌ فاحص، فيه
الخبرُ اليقين.

قد تكون معامل الدنيا في نتائجها خاطئة، أما
القرآن فتنتائجُه قطعية ثابتة! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾
[النساء: ١٢٢].

هذا بالنسبة لميزان النفقة، وكيف تزن نفسك،
وتفحص قدراتك فيه، ومدى تمكنك من النجاح في
التجربة والنتيجة القرآنية واقعًا وعملاً. أما بالنسبة
للعمل ووقته المتناسب مع خلقك، فإن القرآن الكريم
يرشدك إلى أن يكون ليلك لباسًا ساترًا ونومًا وراحة،
وأن يكون نهارك عملاً وحياةً ومعاشًا ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾
﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠-١١].

لقد امتنَّ الله على عباده أن أوجد لهم وقتي الليل
والنهار، وجعل لكل وقت وظيفته ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا أَيْلَ
لَيْسَكُونُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

قضى سبحانه أن يكون الليل هدوءًا وسكنًا، والنهار
بصرًا وسعيًا، والبصر حركة وضوءًا وعملاً! ﴿وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وورد في القرآن آية تهزُّ الإنسان وتنبِّهه وتوقظه؛
إذ يصف ربُّ العزة نفسه فيها بأنه ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾؛ «أي
شاقُّ عَمُودِ الصُّبْحِ عَنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَكَاشِفُهُ»^(١) للعمل
والحياة، فالليل سكنٌ ونومٌ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

افحص نفسك أيها الإنسان؛ أين أنت والسهرة؟
وأين أنت والمعاش النهاري؟ جعل الله طبيعة جسمك
وأجسام ذوي الأرواح، مع الشمس والنور عملاً وحركة،
ومع الليل والظلام سكونًا واسترخاءً ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ﴾^(٢٢)
﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ﴾ [المدثر: ٢٣-٢٤].

وعبر سبحانه عن طلوع الصبح بالحركة ﴿نَفَسٌ﴾،

(١) معالم التنزيل، تفسير البغوي، (١٤٦/٢).

وَالنَّفْسُ حَرَكَةٌ، وَتَوَقُّفُهُ مَوْتُ وَهَلَاكٌ، فَمَعَ الصَّبْحُ الْعَمَلَ ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٨].

وتتابع الآيات القرآنية التي يعرض القرآن فيها الليل والنهار، وأنهما من نعمة الله على خلقه، فلو كانت حياتنا الدنيوية ظلمةً، فكيف سَنَتَحَرَّكُ في أرض الله، فنزرعُ ونعملُ ونغدو ونروح، وكيف سَنَتَمُو الأشجارُ وتَتَجُّ الثُّمار دون ضوء ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ولو صار العكس، وكانت الدنيا ضوءاً ونوراً وحركةً وعملاً، فكيف لنا بالراحة والليل الهادئ الخافت ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

إن هذين الوقتين لازِمان للحياة؛ فالليل سكن، والسكن يعني الهدوء والراحة، فلا عمل ولا حركة، وإنما راحة واستجماع لنشاط النهار؛ والنهار عمل ونشاط وطلب فضل الله.

وقد ارتبط الفضل في آياتٍ أخرى بالحركة والعمل، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

وفي سورة الجمعة جاء الأمر بالعمل بعد الصلاة مسنداً إلى فضل الله وخيره ومعاشه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

إن الليل والنهار آيتان من آيات الله، ونصَّ سبحانه على أن النهار عملٌ، وطلبُ فضل الله، أي رزقه وخيره ومعاشه ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

وتلكم الطيور فهمت، وما عارضت السنة الكونية، فما أن يتفَسَّ الصبحُ، ويبزغُ ضياءُ الفجر، إلا وتسمع أصواتها وتناغيها وانطلاقها للعمل تبتغي فضل الله، وتبحث عن رزقها.

ارجع للقرآن، وافحص نفسك مع توجيهاته، وانظر
 أين موقعك أيها الإنسان الساهر، ألا تتعلم من الطيور!
 إن في سهرك خللاً وتعطياً ومخالفةً لما جَبَلَ اللهُ
 جِسْمَكَ عليه من أن تكون حركته وعمله مع النور،
 وراحته وهدوءه مع الظلام والليل. تنبّه فقد يكون في
 هذه المخالفة ضررٌ صحيٌّ، لاسيما أن العلم الحديث
 قد أثبت أن للنوم المبكر فوائد كبيرة على صحة
 الإنسان وحماية جسمه.

إن الله - سبحانه - يمتنُّ، فهل نشكر؟! وهل نسمع،
 فنعمل بتوجيهه؟!

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي
 ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

كتبنا الله وإياكم من عباده السامعين المُطيعين.



نحن والإحسان..

كيف أنتَ وأنا وهو وهي معَ الإحسان للآخرين!
هَلَّا ساءلنا أنفُسنا: ما الإحسانُ الذي قدَّمناه في
أسبوعنا الماضي ويومنا الحاضر؟ افحصْ نفسك،
وكرِّر السؤال عن إحسانك، فاللَّهُ وَعَدَ المحسنين
خيرًا، واللَّهُ يحبُّ المحسنين!

افحصْ نفسك، وكن من المَحْبُوبِينَ لِلَّهِ!

يقول تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].
إذا أحسنتَ فلكَ من الله إحسان، وشتانَ بين إحسان
البشر، وإحسان خالق البشر!

إي واللَّهُ، ما أعظمَ الإحسانَ وأحسنَه وأجلَّه! ورد
في تفسير ابن الجوزي: «عند قولهِ تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ

أَلْإِحْسَنَ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿١﴾ قَالَ الرَّجَاُ، أَيَّ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَعَمِلَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا الْجَنَّةُ^(١).

وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ: هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الْجَنَّةُ؟!»^(٢) (٣).

وَيَعِدُ اللَّهُ الْمُحْسِنِينَ خَيْرًا، وَوَعْدُهُ حَقٌّ؛ إِذْ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَةٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

أَحْسَنُ نِيَّتِكَ فِي إِحْسَانِكَ مَعَ اللَّهِ، وَمَعَ عِبَادِ اللَّهِ،

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٥٤٤)، والدينوري في المجالسة (٢٠٩/٨ رقم ٢٥٧٩)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ١٤٦).
(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٣٣٧/٤ رقم ٦٩٧٥)، وأبو نعيم في أخبار أصفهان (رقم ٨٤٦).

(٣) زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، (١٣٩/٤).

ومع كلِّ إحسان تبذله لأي كائن وانتظر واصبر فالله يقول: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

كرّر فحَصَ نفسك في جهاز الإحسان، واجعل لك إحساناً يومياً ولو مع الحيوان.

عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَضَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»^(١).

لقد أَمَرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِالرَّحْمَةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامَ دِينَ الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَمِنْ شِدَّةِ عِنَايَةِ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الْمَبْدَأِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّهُ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ لِكُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لِلْحَيَوَانِ، وَوَعَدَ عَلَى ذَلِكَ بِالْأَجْرِ الْجَزِيلِ.

(١) أخرجه البخاري (٩٩/٦ رقم ٢٣٦٣)، ومسلم (١٧٦١/٤ رقم ٢٢٤٤).

لَمَّا سَمِعَ الصَّاحِبَةُ هَذِهِ الْقِصَّةَ، سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حُسْنِ مُرَاعَاتِهِمْ لِلْبَهَائِمِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا: هَلْ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَجْرٌ؟ فَأَجَابَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»، وَالْمَعْنَى: فِي كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ ثَوَابٌ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ يُحْسِنُ إِلَيْهِ، وَعَبَّرَ بِالْكَبِدِ؛ لِأَنَّهَا الْعُضْوُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى الْمَاءِ، فَإِذَا يَبَسَ هَلَكَ الْحَيَوَانُ؛ فَكُلُّ بَهِيمَةٍ أَحْسَنْتَ إِلَيْهَا بِسَقْيٍ، أَوْ إِطْعَامٍ، أَوْ وَقَايَةٍ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرَدٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ لَكَ، أَوْ لغيرِكَ مِنْ بَنِي آدَمَ، أَوْ لَيْسَتْ مِلْكًا لِأَحَدٍ -فَإِنَّ لَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: الْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا حَصَلَتِ الْمَغْفَرَةُ بِسَبَبِ سَقْيِ الْكَلْبِ، فَسَقْيُ بَنِي آدَمَ أَعْظَمُ أَجْرًا. وَفِيهِ: فَضْلُ سَقْيِ الْمَاءِ وَكَوْنُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبَاتِ. وَفِيهِ: التَّنْفِيرُ مِنَ الْإِسَاءَةِ إِلَى الْبَهَائِمِ وَالْحَيَوَانِ.

ويكرر في القرآن الكريم الحثُّ على الإحسان والثناء على المُحْسِنِينَ، فنبي الله نوح عليه السلام جازاه الله بإحسانه وصبره ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعو

قومه حتى يئس منهم، فأهلكهم الله بالغرق؛ فاضت الأرض، وانهمرت السماء بالماء، وابتلعتهم الأمواج. وأنجى الله نوحًا؛ استجاب - سبحانه - لندائه وصارت ذريته هم الباقين، إحسان رباني ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ ٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ [الصافات: ٧٥-٨١].

وذكر الشيخ ابن عثيمين فوائد عند تفسيره لهذه الآية، فقال:

* «من فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أن المحسن يُجازى بمثل ما جُوزي به نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وذلك بإنجائه من الهلاك وسلامة عرضه من الذكر السيئ، وكلما كان الإنسان أكثر إحساناً كان أكثر ثواباً وأسلم.

* ومن فوائد الآية: إثبات القياس لقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني مثل هذا الجزاء نجزي كل محسن.

* ومن فوائدها: أن الله سبحانه وتعالى يرتب الجزاء

والعقوبة والثناء والقدح على الأوصاف، لا على الأشخاص؛ لأنه هو علّق الجزاء على الإحسان، ولهذا لم يأتِ شيءٌ من أحكام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى مقيّدًا بشخصٍ لشخصه أبدًا، حتى خصائص الرسل، ليست من باب خصائص الأشخاص، لكن من باب خصائص الأوصاف؛ لأنّ فيهم وصفًا زائدًا على غيرهم، وهو وصفُ النبوة والرسالة، فُخصّوا ببعض الأحكام المناسبة لمقامهم، أما أن يُخصَّ شخصٌ بعينه لأنه فلان ابن فلان مثلاً، فهذا لا يوجد في الشريعة؛ لأنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يرتّب الأحكام ويعلقها على الأوصاف، لا على الأشخاص»^(١).

وذاك نبيُّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أصابه البلاء العظيم، حين رأى في المنام ذبح ابنه، وأُيِّ بلاءٍ أشدُّ من ذلك البلاء، سمّاه الحقّ -سبحانه- بالبلاء المبين؛ إذ لا أعظم بلاءً من أن يُقدِّم الإنسان على ذبح فلذة كبده؛ طلباً لمرضاة الله، فكان النداء والإحسان ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ

(١) تفسير ابن عثيمين، سورة الصافات، الآية: ١١٠.

أَسْعَى فَكَالِ يَبْنَى إِلَيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَأَبَّتُ
أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾
وَنَدَيْنَهُ أَنِ يَتَّزِهِمُهُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ
هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾
سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ [الصافات: ١٠٢-١١٠].

تكرر في هذا السياق الجزاء للمحسنين قال الشيخ
ابن سعدي: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله،
ومعاملة خلقه، أن نفرج عنهم الشدائد، ونجعل لهم
العاقبة، والثناء الحسن^(١).

فَكُنْ مُحْسِنًا، واجعل الإحسان سَجِيَّتَكَ الأولى
وصفتك الأهم.



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص ٧٠٦).

هَلَّا تَعْرِفْتِ عَلَى دَرَجَةِ إِيمَانِكَ!

يُغْفَلُ الكثيرون عن درجة إيمانهم، فهل هم في أعلى الدرجات، أم في وسطها أم في أدناها؟! فهَلَّا عرفتِ أين أنت؟!!

تمضي الأعمارُ، وتُفاجئنا الأقدارُ، فنرحل مع الراحلين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢١)

[ق: ٢٠-٢٢].

تَبَّهْ من غفلتك قبل أن ينكشف الغطاء، وترى غفلتك في الدنيا، فتتأسى وتتحسّر!

درجة إيمانك كيف هي؟ هل لديك استرخاء في

دينك؟ إذا رغبت معرفة وضعك الإيماني، وكيف أنت؟
ففي القرآن الجواب!

تذهبُ لعيادة الطبيب، وقبل مقابلته، يقيسون
درجةَ حرارتك، ويسجلون مقدارَ وزنك، ثم تقابلُ
الطبيب، وقد يطلبُ مزيداً من الفحص لمعرفة وضعك
الصحي، فيأمرك بإجراء تحاليل طبية، وتصوير أشعةٍ
قبل أن يصرفَ لك وصفة العلاج!

ومثلما تحرصُ على العلاج من داء الجسم،
وفحصه لدى الأطباء، افحصْ درجةَ إيمانك، واحرصْ
على المبادرة، بالعلاج من داءِ الفكر ومرض الغفلة!

اعرضْ نفسك على القرآن؛ لتعرفَ وضعك
الإيماني، ربما تكونُ قلقاً من سلامة منهجك الديني،
وهل أنت وفق المنهج الصحيح، أم أنت في حيدةٍ
وحيرة، اقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وتدبر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

[طه: ١٢٢].

كيف أنت وهُدَى الله، سَلِ الله الهداية وحفظه من أن
تضلَّ وتشقى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

سَلِ نفسك في خلوتك كيف التزامك بأوامر الله
ونواهيه؟ هل تَعْظُ وتَأْمُرُ غيرَكَ وتتسى نفسك ﴿تَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْإِثْرِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

احذَرْ مخالفةَ فِعْلِكَ قَوْلِكَ إِيْمَانِكَ وِيقِينِكَ.

افحص نفسك واعرضها على القرآن سوف تجد
التنبيه والتحذير من رخاوة إيمانك، فعندما تُطَفِّفُ
في عملك وتسترخي في أدائك فالقرآن يُذَكِّرُكَ ﴿وَلِ
لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ
يُخْسِرُونَ ٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[المطففين: ١-٦].

إِنْ كُنْتَ تُطَفِّفُ فِي عَمَلِكَ فَلَدِيكَ رَخَاوَةٌ إِيْمَانِيَّة.

إِنْ كُنْتَ مُوظَّفًا وَأَنْجَزْتَ مَعَامَلَةَ ذَاكَ الصَّدِيقِ
وَالْآخِرَ الْقَرِيبَ، وَتَرَخَيْتَ فِي إِنْجَازِ مَعَامَلَةِ ذَاكَ الْبَعِيدِ

فقد طُفِّفَتْ، القرآن يزجرك ويتهدّد المطففين، احذر
أن تكون منهم.

إن كنت معلماً واعتدت التأخر عن طلابك، فذاك
ضعفٌ في إيمانك وتطفيف.

إن كنت في مهنة بيع وشراءٍ فطُفِّفَتْ في كمالك،
فلديك ضعفٌ إيمانيّ يجب أن تتنبّه له.

اقرأ وتدبّر سورة المطففين تجد التحذير؛ تهديدٌ
وتخويفٌ مما بعد البعث، من يوم المحاسبة، وإيقاظٌ
للغافلين عن الكمال في أداء الحقوق ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

اقرأ عتاب الله لذاك المسترخي إيمانه المتشددٌ
بالقول والوعظ، والناسي لنفسه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾
[الصف: ٢، ٣].

تدبر هذه الآيات يقوى إيمانك.

وَلتَعْرِفْ قُوَّةَ إِيمَانِكَ؛ زِنْ نَفْسَكَ بِمِيزَانِ الصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ، وَاَنْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مَعَ الصَّبْرِ؟ وَمَا هِيَ حَالَتُكَ
مَعَ الصَّلَاةِ، هَلْ تَسْتَحْضِرُ أَدَاءَ رَكْعَتَيْنِ لِلَّهِ فِي حَالَةٍ
ضَيْقِكَ وَقَلْقِكَ؟ اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْعَيْنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. تَذَكَّرْ هَذِهِ الْآيَةَ يَزِدُّ
إِيمَانَكَ، وَتَطْمَئِنُّ نَفْسُكَ!

كَيْفِيَّةُ مَسَارَعَتِكَ لِلْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ؟ هَلْ فِيكَ
اسْتِرْخَاءٌ وَضَعْفٌ! وَهَلْ قَنَاعَتُكَ بِالْعَمَلِ الْخَيْرِيِّ وَاهِيَةٌ؟
هَلْ أَنْتَ فِي تَرَدُّدٍ مَعَ الْعَمَلِ الْخَيْرِيِّ؛ اقْرَأْ دَعَاءَ نَبِيِّ اللَّهِ
زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَأَصْلَحَ لَهُ زَوْجُهُ؛
إِذْ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ٨٩ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ،
زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

فَتَعْلِيلُ تِلْكَ الْاسْتِجَابَةِ مُشْرُوطٌ بِالمَسَارَعَةِ فِي عَمَلِ
الْخَيْرَاتِ، وَدَعَاءِ اللَّهِ رَغَبًا وَرَهَبًا، وَالْخُشُوعِ لَهُ وَحْدَهُ
سُبْحَانَهُ.

إذن، كيف أنت ومسارعتك للأعمال الخيرية؟ إذا سمعت بهذا المشروع وذاك البرنامج الخيري، هل تتشوق له أم لا تأبه به؟ تعلم من نبي الله زكريا ومن زوجه كيف كانوا يسارعون، يجرون، يهرولون لكل عمل خيري، ليس عملاً واحداً، بل أعمال خيرية متعددة ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. ومع تلك المسارعة، يدعون الله رغبة ورهبة، ويستحضرون عظمة الله، فصار الخشوع سمة لهم.

استحضر هذا المنهج وطبقه يقوى إيمانك.

يقول الشعراوي: «توضح الآيات سبب وعلة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

هذه صفات ثلاث أهلت زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهي، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا، فهي أيضاً ليست خاصة به، إنما بكل مؤمن يقدم من نفسه هذه الصفات»^(١).

(١) تفسير الشعراوي، (١٦/٩٦٣٣).

ومما جاء في تفسير ابن كثير قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أَي: فِي عَمَلِ الْقُرْبَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ قَالَ الشَّوْرِيُّ: ﴿رَغْبًا﴾ فِيمَا عِنْدَنَا، ﴿وَرَهْبًا﴾ مِمَّا عِنْدَنَا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيِ مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُؤْمِنِينَ حَقًّا.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: خَائِفِينَ.

وَقَالَ أَبُو سِنَانٍ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا ﴿خَشِيعِينَ﴾ أَي: مُتَوَاضِعِينَ.

وَقَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿خَشِيعِينَ﴾ أَي: مُتَذَلِّلِينَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَتُشُّوا عَلَيْهِ
بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَتَخْلُطُوا الرَّغْبَةَ بِالرَّهْبَةِ، وَتَجْمَعُوا
الْإِلْحَافَ بِالْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَثْنَى عَلَى زَكْرِيَّا وَأَهْلِ
بَيْتِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾^(١).

ومما دونه الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب قوله:
«المسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء
به، لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة»^(٢).

هذا وبعدُ، فكل أعمالك في علم الله، وسوف تجد كل
خير قدَّمته في آخرتك ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

تذكر يوم التغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾

[التغابن: ٩].

(١) تفسير ابن كثير، ت: سامي السلامة (٣٧٠/٥).

(٢) مفاتيح الغيب: الفخر الرازي، (١٨٢/٢٢).

سماه الله بيوم التغابن، وسماه بيوم الحسرة ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

تذكر ذاك اليوم، استيقظ من غفلتك الآن الآن،
وهرول لتقوية إيمانك، فالقرآن خير فاحص، وأصدق
مُخبر. لديك اليوم فُسحة في الوقت قد لا تتوفر لك
فيما بعد!

استمع واقرأ خطاب الله لك وبادر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

إي والله، كفى بآيات الله فحصاً وإيقاظاً وتقويةً
لإيمانك!



الودُّ

كُلُّ فَرْدٍ يُوَدُّ أَنْ يَكُونَ مُحِبُّوًّا عِنْدَ الْآخِرِينَ، يَهْشُّونَ
لَهُ وَيُبْشُّونَ، نَرَى زَيْدًا فَتَرَى فِي وَجْهِهِ الطَّمَأْنِينَةَ وَالنُّورَ
﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مَنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وَنَلْقَى عَمْرًا فَتَشْعُرُ
نَحْوَهُ بِالْوَدِّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

إِنَّهُ الْقُرْآنُ؛ نَجِدُ فِيهِ الشِّفَاءَ وَالطَّمَأْنِينَةَ، وَنَلْقَى فِيهِ
الْفَحْصَ الصَّحِيحَ لِدَوَاتِنَا!!

حِينَ تَشْعُرُ بِالْمُودَّةِ وَالْمُحَبَّةِ نَحْوَ شَخْصٍ، فَسَأَلْ
نَفْسَكَ عَنْ سَبَبِ تِلْكَ الْمُودَّةِ، أَهِيَ لِمَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ،
أَمْ لِمُحَبَّةٍ وَتَقَارُبٍ نَفْسِيٍّ، أَمْ لِرَابِطَةِ رَحِمٍ وَقَرَابَةٍ،
أَمْ لِحَوَارِ وَزِمَالَةٍ، أَمْ لِمُحَبَّةٍ هَوَىٍّ وَمَعْصِيَةٍ، أَمْ لِمُحَبَّةٍ
فِي اللَّهِ خَالِصَةٍ؟ فَفَكِّرْ وَتَأَمَّلْ فِي تِلْكَ الرَّابِطَةِ.

إن في القرآن الخبرَ اليقين، وفي السنة النبوية
البيان الأكيد.

قال ابن القيم في تفسيره: «التحابُّ والتآلف إنما
هو بالإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾؛ أي يُلقِي بينهم
المحبَّة، فيحبُّ بعضهم بعضًا، فيترحمون، ويتعاطفون
بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة».

وقال ابن عباس: «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى عِبَادِهِ».

قال هرم بن حيَّان: «ما أقبلَ عَبْدٌ بقلبه إلى الله
عَزَّجَلَّ، إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه
مودَّتهم ورحمتهم».

وأهل المعاصي والفسوق وإن كان بينهم نوع مودَّة
وتحابٍّ، فإنها تتقلبُ عداوةً وبغضًا، وفي الغالب يتعجَّلُ
لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة، أما في الآخرة فـ
﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال إمام الحنفاء لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ
أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ^(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى
جَبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ
السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ». وفي لفظٍ
لمسلم: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي
أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِّهِ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي
السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِّوهُ فَيُحِبُّهُ
أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ،
وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا
فَأَبْغِضْهُ قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ:
إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبِغْضَاءُ
فِي الْأَرْضِ» ^(٢).

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، (٢/ ١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨/ ٥٢١ رقم ٧٤٨٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧).

وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال:
«كُنَّا بِعَرَفَةَ فَمَرَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَهُوَ عَلَى الْمَوْسِمِ،
فَقَامَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَقُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَى اللَّهَ
يُحِبُّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ. قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ لِمَا لَهُ
مِنَ الْحَبِّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ. فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْدُثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ،
وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ زَادَ فِي آخِرِهِ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا﴾^(٢).

وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحبُّهم
إلى عبادِهِ.

وفي الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا
سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ: «وَمَا أَعَدَدْتَ
لَهَا؟ قَالَ: لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ: أَنْتَ
مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ».

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٠/٤) رقم (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧/٥) رقم (٣١٦١).

قال أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فما فرحنا بشيءٍ فرحنا بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحبُّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل أعمالهم^(١).

وفي الترمذي عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «المرء مع من أحبَّ وله ما اكتسب»^(٢).

وفي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَحُوا بِشَيْءٍ لَمْ أَرَهُمْ فَرَحُوا بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْهُ. قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ يُحِبُّ الرَّجُلَ عَلَى الْعَمَلِ مِنَ الْخَيْرِ يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يَعْمَلُ بِمِثْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المرء مع من أحب»^(٣). وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعاً، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٤/٩) رقم ٣٦٨٨، ومسلم (٢٠٢٢/٤) رقم ٢٦٣٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩٥/٤) رقم ٢٣٨٦، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود (٧٥٥/٢) رقم ٥١٢٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٥٦٥).

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(١).

وفي جامع أبي عيسى الترمذي من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله عز وجل المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»^(٢).

وفي لفظ لغيره «المتحابون بجلال الله يكونون يوم القيامة على منابر من نور يغبطهم أهل الجمع»^(٣).

وفي الموطأ من حديث أبي إدريس الخولاني قال: «دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا والناس حوله، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدروا

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٨/٤) رقم (٢٥٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩٧/٤) رقم (٢٣٩٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ذكر هذه الرواية ابن الأثير في جامع الأصول (٥٥١/٦) رقم (٤٧٧٨)، وقال:

ذكرها رزين.

عن رأيهِ، فسألت عنه، فقالوا: هذا معاذُ بن جبل، فلما كان الغد هجرتُ إليه فوجدتهُ قد سبقني بالتهجير، ووجدتهُ يصلي فانتظرتُهُ حتى قضى صلاته، ثم جئتهُ من قبل وجههِ، فسلمتُ عليه، ثم قلت: واللَّهِ إني لأحبُّكَ في الله، فقال: آلله، قلتُ: الله، فقال: آلله، فقلتُ: الله، فأخذ بحبوةٍ ردائي فجذبني إليه، وقال: أبشر، فإني سمعتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبتُ محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتبازلين فيَّ»^(١).

وفي سنن أبي داود من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضلُ الأعمالِ الحبُّ في الله، والبغضُ في الله»^(٢). وفيه أيضاً عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة بمكانهم من الله.

(١) أخرجه الإمام مالك، (٩٥٣/٢ رقم ١٧١١)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (١٠/٤ رقم ٤٥٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٩٠/٢ رقم ٤٥٩٩).

قالوا يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تخبرنا مَنْ هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ « [يونس: ٦٢] »^(١).

وفي لفظ لغيره: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله! من هم لعلنا نحبههم. قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال تباذلوها، ولا أرحام تواصلوها، هم نور، ووجوههم نور، وعلى كراسي من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود، (٢١/٢ رقم ٢٥٢٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦٢/٦) رقم ١١٢٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٥/٦ رقم ٨٩٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٩٣/٣ رقم ٣٠٢٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٣٢/٢ رقم ٥٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٥/٦) رقم ٨٩٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٣/٣ رقم ٣٠٢٣).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةِ تَرْبُّهَا؟ قَالَ لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحَبُّهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْكَ أَنْ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّتْهُ فِيهِ»^(١).

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثوابًا عاجلاً أَنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْبَلُ بِقُلُوبٍ عِبَادَهُ إِلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُ يَعْضُ بِقُلُوبِهِمْ عَمَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، فَقُلُوبُ الْعِبَادِ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِأَيْدِيهِمْ»^(٢). ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

أخي في الله، تنبّه لما نَبَّهَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، واحذَرْ رَفَاقَ السَّوِّءِ؛ فَشَتَّانَ بَيْنَ مُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ، يَنَالُونَ ثَوَابَهُ وَنَعِيمَهُ، وَمُتَحَابِّينَ فِي الْمَعَاصِي

(١) أخرجه مسلم، (٤/١٩٨٨ رقم ٢٥٦٧). وانظر: تفسير ابن القيم، سورة مريم، الآية: ٩٦.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، (ص ٤١٧).

والشهوات. افحص نفسك لا تكن مع أولئك، فحتمًا سيأتي يوم البراءة ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَقُتِّعَتْ بِهِمْ الْأَسْبَابُ﴾ (٣٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

سَلِّ عَنْ رِفْقَةِ الْخَيْرِ تَجِدُ فِي الْقُرْآنِ تَعْرِيفَهُمْ!

ابحث عنهم واصحبهم، وافحص نفسك مع رفاقك، وأين هم من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

تذكر يوم التخاصم والتلاوم، نجانا الله وإياك من تلك الخصومة، وذاك الندم والأسى، فلا عودة. واسرح في نفسك مع عدد الأصدقاء الحميمين حولك، واستزد منهم: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦-١٠٢].

الوقاية من الشقاوة

افحص نفسك من داء الشقاوة، واحذر أن تكون
ذاك الشقي! جنبنا الله وإياكم أسباب ومسببات
الشقاوة!

فَتَحْتُ المصحفَ الكريمَ أتلو ما تيسَّر، فاستوقفتني
هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ
فَاَمْطُرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٢٢].

أيُّ شقاوةٍ أقسى من هذه الشقاوة المتمثلة في هذا
الطلب؟!

كفارٌ قريش يسألون الله أن يُمطر عليهم حجارةً إن
كان القرآن هو الحقُّ. نعوذُ بالله من زيغِ القلوب!

كلامُ الله الخالد، وقرآنُه العظيم الذي هزَّ ويهزُّ
القلوب، يستقبلونه بهذه الأمانة!

القرآنُ معجزةُ الله العظيمة، التي تحدّاهم الله
بها، بأن يأتوا حتى بسورةٍ من مثله فعجزوا وكذبوا
وتطاولوا، ووصلت بهم الجرأة أن يسألوا الله أن
يرجمهم بالحجارة!

جاء في تفسير الزمخشري: «عن معاوية أنه قال
لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملّكوا عليهم
امرأة! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله
صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق: ﴿إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً﴾، ولم يقولوا: إن كان هذا
هو الحقُّ فاهدنا له»^(١).

أولئك الضالون قالوا هذا القول والرسول صلى الله عليه وسلم
بينهم، فلا تستغرب أن يأتي في هذا الزمان ساخرٌ
بدين الله، شقيٌّ يسحب غيره للغواية والضلالة!

(١) الكشف، الزمخشري، (٢/٢١٧).

وزادت سفاهة أولئك العصاة، وتناولوا على رسول الله
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ۖ﴾^(٩٠)
 أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ﴾^(٩١)
 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ﴾^(٩٢)
 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
 عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٠-٩٣].

إن هؤلاء المعاندين الأشقياء موجودون في كل
 العصور، فاحذروا حبائلهم، وإذا رغبت أن تعرف بعدك
 عنهم وشقاوتهم، فابتعد عن الشبهات والتمشابه،
 والتأويل والتأول ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ
 هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ
 مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ
 وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنًا بِهِ ۚ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
 الْأَلْبَابِ ﴿[آل عمران: ٧].

اسأل أهل العلم عما أشكل والتبس وخفي ﴿فَسْأَلُوا
 أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[النحل: ٤٣].

استنباط الدليل، واستخراج الحجة للعلماء ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٢].

احذر دُعاة الباطل، فهم كثر وأهل بيان، وإياك والظن السيئ، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

في كل زمانٍ يسوء الكثيرين من دُعاة الشهوات والمحرمات ابتعادك عنهم؛ فيسخرّون من طهارتك، ويسمّونك بالتخلف والتشدد، ويصفونك بالتطرف والتجبر ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

جاء في الأثر: ودّت الزانية لو أنّ كلّ النساء مثلها زناة!

اعرض نفسك على القرآن، وافحص ذاتك عندما تهتمّ بالحديث عن خبرٍ تأنف أن تكون صاحبه، امسك

لسانك وأنس الخبر، واحذر أن ترويه فتكون ذلك الشقي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

تناس، ورفض استقبال كل معلومة ذم في هذا أو تلك!

تجنب الظن والتوجس، وانج بنفسك من الشقاوة والمطالبة. فذاك الذي تناولت سيرته وقلت فيه وفيه، ستقابل وإياه يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة وتحاسبون، فهلاً غلبت حسن الظن والإعراض عن القيل والقال.

﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾

[الحجرات: ١٢].

احذر التجسس وتتبع الزلات والغيبة؛ فتكون ذاك الشقي البذيء ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ
 مَا الْمُفْلِسُ؟ إِنَّ الْمُفْلِسَ مَنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا،
 وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ
 هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،
 فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ
 خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

إن في القرآن صلاح النفوس، وسلامة المجتمعات،
 ونقاوة الأسر. اقرأ تلك التوجيهات الربّانية، وانظر أين
 أنت منها، وهل إذا سمعت خبراً من ذاك المُتحدث،
 أو تلك المذيعة تقبله وتبته وتثبّق بما سمعت، أم تتأكد
 وتتثبت وتعرض عن نشر الخبر حتى لا تشوّه سمعة
 الآخرين. افحص نفسك مع تلك الأخبار التي صارت
 تتوالى في وسائل التواصل، وإياك والعجلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى
 مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

(١) أخرجه مسلم، (٤/١٩٩٧ رقم ٢٥٨١).

صُنِّ لسانك عن السخرية بهذا وذاك، وتلك وهاتيك،
ولا تكن ذاك الشقيِّ الهاذرَ بالشماتة، النابزَ القادح. تدبَّرْ
وافحصْ نفسك؛ كي لا تكون من الوالغين في الأعراض؛
إذ يقول تعالى مُحذِّراً من طريق الشقاوة الكريهة: ﴿يَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ
عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

إن القرآن كلامُ الله الخالد المعجز فيه الشفاء ﴿وَنُزِّلَ
مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾
[الإسراء: ٨٢].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ
وَقُرْءَانٌ عَلَيْهِمْ عَمًّ أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

هو بالأمس واليوم والغد وإلى ما شاء الله، هو
الكامِلُ ﴿قُلْ لِّنَّ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].



الخاتمة

القرآن مائدةُ الله الكاملة، فيه الطمأنينة والسعادة،
مأمورون بتلاوته، مندوبون بتدبره، هو خيرُ العلومِ
وأشرفها.

وهذا الكتابُ (القرآن والفحص الذاتي) إسهامٌ في
خدمة كتاب الله، هو وقفات قد يهدي ضوؤها حائراً،
وقد يجدُ فيها مهمومٌ راحةً وشفاءً، وقد تدفعُ حُرُوفُها
لجلساتٍ حوارٍ قرآنية، أسأل الله القبولَ.

إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي كلما قرأتهُ بدت
لك فائدة، وكلما تدبّرتُهُ ازددت إيماناً وعِلماً، وكلما ردّدته
ما ملّتهُ، يقول أبو بكر الرازي عند تفسيره قوله تعالى:
﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْتَغِ الصَّلَاةَ تَنْهَى

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾
 [العنكبوت: ٤٥]، قال: الكتب على ثلاثة أقسام؛ كتاب لا تكره
 قراءته إلا للغير كالقصص، فإن من قرأ حكاية مرة
 لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره، ثم إذا سمعه ذلك الغير
 لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه، ولو قرأه عليه لسئموه.

وكتاب لا يُكرَّرُ عليه إلا للنفس؛ كالنحو والفقه وغيرهما.

وكتاب يُتلى مرة بعد مرة؛ للنفس وللغير، كالمواعظ
 الحسنة، فإنها تُكرَّرُ للغير، وكلما سمعها يلتذُّ بها، ويرقُّ
 لها قلبه، ويستعيدُها، وكلما تدخَّلَ السمع يخرج الوسواسُ
 مع الدمع، وتُكرَّرُ أيضًا لنفس المتكلم، فإن كثيرًا ما يلتذُّ
 المتكلم بكلمة طيبة، وكلما يُعيدُها يكون أطيَّب وألذُّ،
 وأثبت في القلب وأنفذ، حتى يكاد يبكي من رفته دمًا،
 ولو أورثه البكاء عمى.

إذا علِمَ هذا، فالقرآن من القبيل الثالث، مع أن فيه
 القصص والفقه والنحو، فكان في تلاوته في كل زمان
 فائدة.

رزقنا الله مُتعةَ التلذذ بقراءة القرآن، ومُتعة تدبُّر
القرآن، ومُتعة الاستنباط والتأليف في خدمة القرآن.
أمين.



قائمة المصادر والمراجع

- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.
- البداية والنهاية، ابن كثير، وثّقه وقابل مخطوطاته الشيخ علي معوض، الشيخ عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت.
- التحرير والتنوير؛ «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ.

- التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، مجموعة من المحققين، عمادة البحث العلمي- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤٣٠هـ.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، مصر، د.ت.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت.
- تفسير القرآن الكريم، محمد الصالح العثيمين، من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الرياض.
- تفسير القرآن، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط ١.
- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ٣، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٤٠هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد بن ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السُّجِسْتَانِي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- السنن الكبرى (سنن النسائي)، أحمد بن علي بن شعيب النسائي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٧، ١٤٢٤هـ/٢٠١٣م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- صحيح ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- صحيح أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت.
- صحيح الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: نظر الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: عبد القادر شيبه الحمد، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٩هـ.
- صحيح الترغيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- صحيح الجامع، محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- صور من حياة التابعين، عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢٥، ٢٠١٦م.
- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد، تحقيق محمد عبد القادر القط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- عجائب القرآن، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر، ١٤٠٥ هـ شارع الجمهورية ببايدين.
- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم، أحمد شاكر، دار الوفاء.
- فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي الشوكاني، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٨، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م.
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧ هـ.
- كُورِيا الجنوبية أشواق وآفاق، د. عبد المحسن بن عبد الرحمن آل الشيخ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر بن سليمان الهيتمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله ابن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.
- المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط ٢، ١٩٩٢م.
- الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- نماذج من رسائل الأئمة السلف وأدبهم العلمي، عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٤، ٢٠١٩م.
- الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٢/٧.